المدخل الى الدراسات

القـرآنيــــــه

الطبعة الأولى

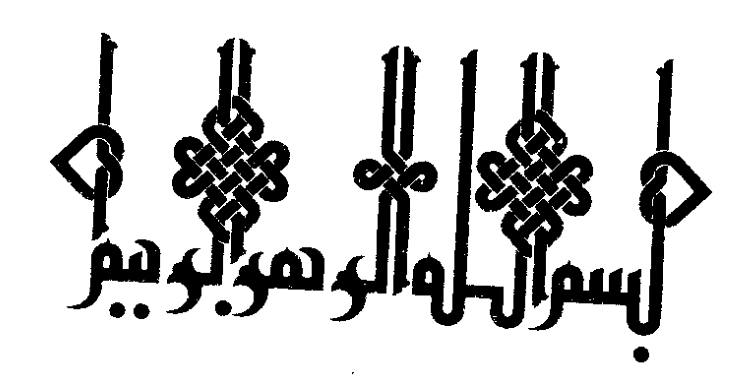
١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م

أبو الحسن علي الحسني الندوي

المدخل إلى الدراسات القرآنية

مبادئ تدبر القرآن والانتفاع به

أضواء على وجوه الإعجاز والعلوم القرآنية


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين ، محمد وآله وصحبه أجمعين .

وبعد ! فإن قصة هذا الكتاب ـ القديم فى التأليف والتكوين ، والجديد فى الطبع والصدور ـ وتاريخه ، يرجعان إلى عام (١٣٥٣ هـ ـ ١٩٣٤ م) حين تعين مؤلف هذا الكتاب معلّما فى دار العلوم التابعة لندوة العلماء لمادتى تفسير القرآن الكريم والأدب العربى وتاريخه . وأسندت إليه دروس فى تفسير متن القرآن الكريم .

وكانت الخطوة الجديدة فى عالم المدارس الدينية فى الهند ، فقد جرت العادة فيها منذ القديم بالاكتفاء بتدريس كتب التفسير القديمة كـ«الجلالين » و «البيضاوى» و «الكشاف» .

وقد سبقت ندوة العلماء إلى تدريس متن القرآن الكريم ، كمادة مستقلة ، ومن غير ارتباط بكتاب خاص فى التفسير ، حتى يستوعب الطالب دراسة القرآن الكريم من أوله إلى آخره ، تحت إشراف معلم توفر على دراسة القرآن الكريم وتذوقه ، ثم يدرس كتب التفسير القديمة المقررة فى المنهج الدراسى فى تفصيل وتحقيق ، وقد كانت فى ذلك فوائد ومزايا، لا تحصل بربط القرآن الكريم بكتب التفسير ربطا وثيقا نهائيًا ، لا يمكن تصور أحدهما إلا بالآخر ، والانطلاق من حدود المنهج الرتيب إلى الجو القرآنى الفسيح .

ولما باشر المؤلف تدريس أجزاء القرآن الكريم التى اختيرت له ، رأى

أن الطلبة الشباب الدارسين لهذا الكتاب المعجز العظيم ، ليست عندهم ركيزة دراسية ورصيد مذخور لمعرفة مكانة هذا الكتاب المعجز الخالد ، وما اشتمل عليه من آيات ومعجزات ، وما انفرد به من آفاق وأعماق ، وما قام به من دور فى نشر الهداية والوصول إلى الحقيقة وربط المخلوق بالخالق ، وإخراج الجيل البشرى من الظلمات إلى النور ، ومن السخافات والسفالات ، إلى قمة الإنسانية السامية القائمة على الرسالة السماوية والهداية الربانية ،ومكانته بين الصحف السماوية القديمة فى ضوء الدراسة المقارنة ، وشهادات المؤرخين من غير المسلمين ، وما اشتمل عليه من نبوءات تبدو متحدية للعقل والقياس ، وتظهر كالشمس الساطعة من وسط الضباب والغبار .

وما هى الصفات والشروط التى تهيئ الطالب إذا استوفاها للانتفاع بالقرآن الكريم والاهتداء بهدايته ، والوصول إلى أعلى الدرجات من السعادة ، وما هى الحجب والحواجز التى تحول بين الطالبين والمخاطبين بالقرآن الكريم ، وبين الانتفاع به ، إلى غير ذلك من البحوث واللفتات، والمعانى والإيضاحات ، التى يستطيع بها الدارسون للقرآن الكريم أن يقبلوا على دراسته فيجدوا نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وشهود العلم والتاريخ والتحليل العلمى ، والدراسات المقارنة، والعدول ، واقفون على كثب منهم ، يشهدون بصدق ما جاء فيه ، وبكونه منزلا من اللّه ، لم تمسه يد التحريف والأهواء ، ولم تؤثر فيه الحوادث والتغيرات، فيزدادوا إيمانا إلى إيمانهم .

بدأ المدرس الشاب ـ وهو لم يتجاوز العقد الثانى من عمره إلا قليلاًـ يدرس المصادر العلمية الإسلامية والأجنبية ، ويستخرج منها معلومات جديدة مفيدة وشهادات ذات قيمة علمية تاريخية ، وجوانب

منيرة مثيرة تفتح آفاقا جديدة لفهم القرآن الكريم والاقتناع بإعجازه وسماويته . فيكون منها بحوثا يمليها على طلبة السنة السادسة فى دار العلوم [١] فى لغة البلاد العلمية والعملية ، التى كانت ولا تزال أداة التعليم فى مدارس المسلمين فى شبه القارة الهندية ، والمدارس الدينية بصفة خاصة وهى : « أردو» يكتبها الطلبة بأقلامهم ، وتصبح مادة دراسية يمتحنون فيها .

وقد نشر كثير من هذه البحوث فى مجلة « الندوة » التى كانت لسان حال ندوة العلماء ومجلتها العلمية الرسمية ، وبقى أكثرها بين دفتى دفاتر الطلبة الذين تخرجوا من دار العلوم ، وغادروها ، ورجعوا إلى أوطانهم ومراكز اشتغالهم .

فلما بدا للمؤلف مؤخرا أن ينشر هذه البحوث فى مجموعة تكون كالمدخل للدراسات القرآنية الكريمة ، حافزة مثيرة للتوسع فى فهم هذا الكتاب السماوى الإلهى ، المعجز الخالد ، والتأمل فيه والانتفاع به ، وجد أنه لا يملك مجموعة يعتمد عليها فى نشر هذا الكتاب ، وأن ما انتسخه الطلبة وقيدوه فى دفاترهم قد ذهب معهم ولا أمل فيه ولا سبيل إليه ، فقطع الرجاء من الحصول عليه ونفض اليد منه .

وإذا به فى يوم من الأيام يجد المجموعة التى كان يحتفظ بها لنفسه عند طالب عزيز [٢] ، فكأنما وجد الضالة المنشودة ، ودرته المفقودة ، فتناول هذه المجموعة بالتنقيح والتهذيب ، وتعديلات وزيادات يسيرة ، وضم إليها بحثا ، عنوانه : « القرآن الحميد والصحف السماوية القديمة

---

(١) كان ذلك فى سنة ٥٨ ــ ١٣٥٧ هـ/ ٣٩ ــ ١٩٣٨ م .

(٢) هو الشيخ السيد محمد طاهر المنصور بورى ، مساعد مدير ندوة العلماء حاليًا .

فى ميزان العلم والتاريخ » ، أخذه من كتابه : « النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن الكريم » وزاد بحثا عنوانه : « نماذج من تدبر السلف وتلاوتهم للقرآن الكريم » والفصل الأخير هو : « بعض تجارب وملاحظات » .

وقد اشتمل الكتاب على مجموعة من معلومات جديدة وبحوث مبتكرة لم يطلع عليها المؤلف فى كتاب آخر ــ والعلم عند اللّه وفوق كل ذى علم عليم ــ خصوصا ما جاء تحت عنوان : إحدى نبوءات القرآن العظيم (نبوءة غلبة الروم) ، وقد حذف من مجموعة هذه الأمالى ما جاء فى مؤلفاته الأخرى ككتاب : « الأركان الأربعة » و « النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن الكريم » أكثر تفصيلاً وفى شكل أوسع وأقوى .

وقد أسند المؤلف عمل نقل هذه المجموعة إلى اللغة العربية ــ لغة القرآن نفسه ــ إلى السيد « سلمان الحسينى الندوى » أستاذ دار العلوم ندوة العلماء ، وهو الذى تولى نقل عدة من كتب المؤلف إلى اللغة الفصحى ، وأحسن القيام بهذا العمل[١] ، واستحق إعجاب المؤلف ودعواته، وشكر القراء بالعربية .

ها هو ذا المؤلف يقدم هذه المجموعة التى كانت باكورة مؤلفاته وبحوثه العلمية ، ومن آثار شبابه ــ وكل ما يمت إليه بصلة حبيب أثير ــ إلى الأوساط العلمية والتربوية المعنية بدراسة القرآن الكريم ، وتفهمه ، وتعريف الشباب المتعلم الدارس به ، وحثهم على دراسته والتأمل فيه،بهمة عالية ، ونفس تواقة ، ونظر بعيد ، عسى أن يحشر المؤلف ويدرج اسمه مع من أكرمهم اللّه وشرفهم بخدمة القرآن الكريم والتمهيد

(١) كالجزء الثالث من رجال الفكر والدعوة الخاص بالإمام السرهندي ، والجزء الرابع منها الخاص بالإمام الدهلوي ، وجزئين من « مسيرة الحياة » للمؤلف .

والتوطئة لفهمه ودراسته .

وعسى أن يكون هذا الكتاب من العوامل الحافزة المثيرة ، للإقبال على التعرف على هذا الكتاب العظيم من جديد ، والعناية به ، وحمد الله تبارك وتعالى وشكره على هذه الكرامة التى خص بها هذه الأمة .

﴿ ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير ﴾ .

أبو الحسن على الحسنى الندوى

٢٢ من ذى القعدة الحرام ١٤٠٥ هـ

١٠ من أغسطس ١٩٨٥ م

الغيب والشهود ، ووسيلة صدوره ونزوله ، هو الوحى الإلهى الذى لا يعترضه شيء من عوارض البشر .

إن هذا المصدر بريء من كل نقص واختلال ، أو شك والتباس ، أو ظن وتخمين ، أو تدرج وتطور ، أو تعارض واختلاف ، وكل ما فيه قطعى يقينى ، مرئى منظور ، ملتئم جازم حاسم ،فليس فى علم اللّه تدريج ولا تطور .

إن صفة علمه كصفاته الأخرى كلها أزلية أبدية :

﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(١) .

إن علمه شامل محيط واسع :

﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾(٢) ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾(٣) .

لا يعتريه الخطأ ولا يعترضه النسيان :

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّى وَلا يَنسَى﴾(٤) إنه يعلم الغيوب والخفايا ولا يند عن علمه ذرة من ذرات الكون، ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٥) .

وكتاب اللّه ــ عز وجل ـ صادر عن علمه ، فهو آخذ من خصائص علمه ومزاياه وظل من ظلاله الفيحاء :

(١) سورة الحديد : ٣ .
(٢) سورة طه : ٩٨ .
(٣) سورة الجن : ٢٨ .
(٤) سورة طه : ٥٢ .
(٥) سورة سبأ : ٣ .

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(١)﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٢) .

ولأجل أنه صادر من علم الله لا يوجد فيه تناقض ولا اختلاف ولا تصادم ، فإنها من صفات الجهل ، أو طروء الزيادة فى العلم والنقصان أو التدريج والتطور أو الظن والقياس ، أو الغفلة والنسيان أو الكذب والاختلاف ، وهو برىء من كل ذلك ، منزه عن كل شائبة منه ، فلا جرم أن يكون كلامه الصادر منه بريئًا من كل تعارض ، محفوظا عن كل اختلاف :

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾(٣) .

وقد يكون المصدر الأساسى للعلم نقيًا غير مشوب ، ومصونًا غير مدخول ، ولكن وسيلة وصوله وبلوغه إلى إنسان ما من الناس لا تعرى من الشك ولا تورث الطمأنينة واليقين .

قد يكون أن يصدر شىء من منبعه الصافى ، ولكنه فى الطريق يتلقى الكدر ، والغش ، ولكن القرآن صرح نفسه بأن وسيلة بلوغه ونزوله ليست إلا الوحى ــ الذى لا يدخله ضعف البشر ونسيانه وخلطه ــ فهو مصون مأمون ، لا يمكن أن يدخل فيه دخيل ، أو يطرأ عليه طارئ .

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾(٤) ،﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ

---

(١) سورة هود : ١٤ .

(٢) سورة الأعراف : ٥٢ .

(٣) سورة النساء : ٨٢ .

(٤) سورة الشعراء : ١٩٢ ــ ١٩٥ تنص هذه الألفاظ ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ على أن هذا الوحى نازل بألفاظه وعباراته ، إذ أنه لا يتصور اللسان بدون مفردات ومركبات ، فهو نازل بكلمات الله وعباراته .

يُوحَىٰ﴾(١) ، ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(٢) ، ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾(٣) .

أما علم البشر فإن مصدره ليس على طريق القطع واليقين مأمونًا مصونًا بريئًا ، فإن أساسه ينبنى أكثر الأحيان على القياس والظن والتخمين ، كما أن وسائل علمه محدودة قاصرة ، وضعيفة كليلة ، تعجز عن أن تبلغ وسائل الأنبياء ومداركهم .

إن من أفضل وسائل الإنسان للعلم هى حواسه الخمس ، وما يختزنه الإنسان من معلومات عن طريق هذه الحواس يظنها بديهية ، ويعتمد فى الأمور العقلية أيضًا على معلومات حواسه هذه ، ثم إنه يكوّن من هذه المعلومات المكتسبة بهذه الحواس مقدمات يرتب عليها نتائج لم تكن حاصلة له من قبل بمجرد هذه الحواس الظاهرة ، ولكن الواقع أن هذه الحواس ليست مصيبة دائمًا ، بل قد تخطئ وقد تصيب (٤) ، كما أن العقل يتفاوت تفاوتًا عظيمًا بين إنسان وإنسان ، وبين مدارج الرقى والنضوج (٥) ، ومهابط الصبا والطفولة .

ثم إن علم الإنسان ــ رغم كل ذلك ــ يبقى فى دائرته المحدودة ونطاقه الضيق كذلك ناقصًا قاصرًا ، لا يشمل حتى المحسوسات فى وقت

(١) سورة النجم : ٣، ٤ . (٢) سورة النحل : ١٠٢ .

(٣) سورة التكوير : ١٩ ــ ٢١ .

(٤) انظر لمعرفة حدود الحواس الخمس وقوتها وصلاحيتها وآراء الفلاسفة الغربيين فيها كتاب «بين الدين والمدنية » للمؤلف .

(٥) اقرأ لمعرفة حدود العقل ونطاق عمله كتاب « بين الدين والمدنية » و « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » للمؤلف الجزء الثالث الخاص بالإمام السرهندى الباب الخامس .

واحد ، وكم من عقد وغوامض وأسرار فى هذا العالم المادى المنظور ، لم يحلها العقل الإنسانى بعد ، وما خاض فيه العقل منها ولج بها فحدث عن اضطرابه واختلاف أهله فيه ولا حرج .

زد إلى ذلك أن معلومات العقل البشرى تتدرج وتتطور ، وتتطلع نحو المزيد ولا قرار له على شيء ، ولم يقرر لرقيه وتطوره حد ، فإذا تعينت الحدود دلت على قصوره ونقصانه ، وإذا لم تتعين وبقيت عائمة دلت على تردده والتباسه وأنه لم يكمل بعد ، وكلا الأمرين لا يخلو من تشكيك فيه واتهام له بالنقص والقصور .

هذا والعالم المبحوث فيه عالم الماديات والحسيات التى يملك البشر بعض وسائله وطرق تحصيلها ، إن وراء هذا العالم المرئى المحسوس عوالم أوسع وأضخم من هذا العالم المادى بكثير ، وإنها لخارجة عن حدود إدراك البشر .

ثم إن الإنسان ـــ رغم ما يدعيه من علم ـــ يجهل حقيقة نفسه وكنه ذاته ،يجهل مبدأه ومصيره ويجهل منشأ هذا العالم المادى ومنتهاه ، وليس كل ذلك ـــ وهو أقرب ما يمكن إليه وأمس ما يكون به ـــ إلا لغزا من الألغاز لا تهتدى إليه العقول المجردة ، والحق أن العقل لا يعرف كيف يحل عقدة « العقل » .

ثم إن المعرفة التفصيلية لرضا اللّه تعالى وسخطه ، والعلم اليقينى بمحبوباته ومكروهاته، والاطلاع على أوامره ونواهيه،لا يتأتى كل ذلك ـــ من دون أن يطلع هو ـــ بمحض القياس والتخمين أو الظن والتقدير ، أو باستقامة الفطرة ، وسلامة القلب .

ومعلوم أن الإنسان لا يطلع دائمًا على رغبة إنسان آخر ورضاه وأموره وأحكامه بمحض قياسه أو تقديره أو فراسته أو قوة ذكائه وإصابة

فهمه ، فكيف بالاطلاع على رضا الله وسخطه ،وليس عند الإنسان شيء من مبادئ علمه .

كذلك فإن الإنسان سيتعرض لآلاف من الأخطاء والسقطات فى التقنين وفى التكوين لأى نظام سياسى وخلقى ،وسوف تتعارض أنظمته وتتصادم قوانينه لفقده المصدر الحاسم الواحد ، ومن ثم تتصادم الشعوب والأمم وتتخاصم فى الدستور والقوانين ، وتتصادم المصالح والرغبات ، والآراء والنزعات .

ويمر الدستور الإنسانى والنظام البشرى ـ لعدم قطعيته وحتميته وأبديته ـ بآلاف من التجارب ومراحل البلاء والامتحان ، وتستمر سلسلة الأخذ والرد ،والموازنة والترجيح وتقوم آلاف من الحركات الثورية ، للإصلاح وقلب النظام إثر النظام ،ويحرم الإنسان ـ فى خضم هذه المشاكل وفى هذه السلسلة من الويلات ـ الطمأنينة والسكينة والأمن والرخاء .

وليس مصدر هذه الويلات والشرور إلا علم الإنسان الناقص الفج ، واعتماده عليه وثقته الزائدة به بغيًا وعدوانًا :

﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾(١) ، **﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾**(٢) **﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾**(٣) .

٢ ـ القرآن محكم ومفصل :

إن القرآن الحكيم واضح كل الوضوح ، محكم كل الإحكام ، مبين

---

(١) سورة بنى إسرائيل : ٨٥ .
(٢) سورة يونس : ٣٦ .
(٣) سورة النجم : ٢٨ .

كل البيان ، فى أصول الدين وكلياته وأسسه ومبادئه وفى جميع الأمور التى تمس إليها حاجة الإنسان فى فلاح دنياه وسعادته فيها وفى نجاته وسعادته فى الآخرة ، لا يحتمل القرآن فى ذلك إبهامًا ولا غموضًا ، ولم يدع فيه تفصيلاً ولا تفسيرًا إلا أودعه فيه (١).

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ (٢) ، **﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**(٣) ، **﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾**(٤) ، **﴿ وَمَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** (٥) .

ولكن الإسلام لا يعطى ذلك التصور الضيق للدين الذى تعطيه أكثر الديانات الأخرى ، ويعتقد به أكثر أصحابها ، إنه هنا يضع القاعدة الكلية للإنسان أنه عبد اللّه ، وأنه لا يخرج من هذه العبودية الأبدية فى أى مجال من مجالات حياته ، وأن جميع أعماله ومهماته حتى القيادة والسلطان ــ الذى يبدو فى ظاهر الأمر منافياً للعبودية والاستسلام ــ ليس إلا مظهرًا من مظاهر عبوديته المطلقة .

---

(١) ينبغى أن يكون على بال القارئ أن القرآن كتاب هداية ونور ، وليس كتاب صناعات وفنون، قد يأتى فيه إشارات إلى بعض الحقائق الكونية وكشوف لبعض الحقائق العلمية ، ولكنه يأتى عرضا وضمنًا لا أصلاً وأساسًا ، وأما قوله : **﴿ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾** وأمثاله من الآيات الكريمة التى تتضمن الإحاطة والشمول لكل شىء ، فالمراد به اللوح المحفوظ وعلم اللّه الأزلى الأبدى ، أما القرآن فإنه لم يتضمن ــ عدا الأصول والكليات ــ كثيرًا من جزئيات الأحكام ، إذا أسند بيانها وتفسيرها إلى رسول اللّه ﷺ ، ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ .

(٢) سورة الأنعام : ١١٤ .　　(٣) سورة الأعراف : ٥٢ .

(٤) سورة يونس : ٣٧ .　　(٥) سورة يوسف : ١١١ .

ولأجل هذا التصور المحيط الكلى الشامل لا تنشأ فى الإسلام قضية الفصل بين الدين والسياسة ،لقد أوتى هذا « العبد» من مولاه المطلق دستورًا شاملاً ، وقواعد كلية محكمة فى صورة « قرآن مبين » تسير حياة العبودية الإنسانية فى هداه ونوره على بصيرة وسعادة وفلاح ، ولا حاجة معه إلى ملحق سياسى يضاف إليه .

٣ ــ القرآن فرقان :

القرآن فارق بين الحق والباطل والخير والشر والنور والظلام ، وهى سمته المميزة التى أصبحت علامة عليه ، بل علمًا يطلق عليه ويعرف به.

﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾(١) .

إن الفارق الأصيل والحاجز السميك الذى أقامه القرآن الكريم ، إلى أن تقوم الساعة ، بين الهداية والضلالة ، والإيمان والكفر ، والإسلام والجاهلية ، ورضا اللّه وغضبه ، وبين الظن واليقين ، والحلال والحرام، فارق مميز يعجز عن نظيره تاريخ الصحف السماوية والتعاليم الدينية عبر العصور والأجيال ، فالفارق الذى أقامه بين التوحيد والشرك ــ على سبيل المثال ــ وما استبعد فيه من أدنى الاحتمالات وأضعف الشبهات ، وأخفى المزالق ، إنه فارق يدل على إعجازه وأنه من اللّه :

﴿ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾(٢) ، **﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾**(٣) ، **﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾**(٤) .

(١) سورة الفرقان : ١ .
(٢) سورة البقرة : ٢٥٦ .
(٣) سورة الأنفال : ٢٧ .
(٤) سورة الأنفال : ٤٢ .

٤ ــ القرآن مصدر للكتب الإلهية السابقة ، ومهيمن عليها :

ينبغى عند هذه النقطة أن تلاحظ ثلاثة أمور :

١ ــ أن أصول الدين وكلياته الأساسية قدر مشترك بين جميع الكتب السماوية والديانات السماوية ، وقد صرح بذلك القرآن الكريم فى عدة مواضع .

٢ ــ أن الصحف السماوية السابقة على القرآن المهيمن ،كانت مؤقتة بزمن محدود ، وبقيت إلى زمن محدود ، فلم تكن فيها صحيفة دائمة البقاء ، ولا مستمرة الحفظ والصيانة .

٣ ــ أن القرآن الكريم كتاب اللّه الأخير ، وهو الصحيفة الأبدية ، الشاملة لأصول الدين كلها ، ولن تزال مصونة محفوظة إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(١) .

وبعد تسليمنا بهذه الملاحظة الأساسية يتيسر لنا فهم الدعوى وإدراكها على حقيقتها : أنه مصدق لهذه الكتب ، وأنه ميزان لمعرفة صحة تعاليمها الأساسية وثبوتها ، ومحك لاختبار مدى أصالتها وسلامتها ، فما وافق منها هذا الكتاب المصدق المهيمن فهو الصحيح المحفوظ ، وما خالفه منها أصولا وكليات فهو المحرف المنْحول .

والآيات التى صرح فيها بأن القرآن الكريم مصدق للصحف السماوية السابقة كثيرة ، وقد ذكرت فى الآية التالية صفتاه المميزتان : (المصدق والمهيمن) :

---

(١) سورة الحجر : ٩ .

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾(١) .

٥ ـ القرآن يهدى إلى سبل السلام ويخرج الناس من الظلمات إلى النور :

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ . يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٢) .

﴿الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴾ (٣) .

﴿هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٤) .

﴿اللَّهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٥) .

إن القرآن الكريم يفتح للحياة الإنسانية بجميع شعبها وميادينها ، تلك السبل المستقيمة المستوية الواضحة ، التى تخلو من كل المطبات والنتوءات والمزالق والأخطار ،ولا تعبر عن هذه السبل أفضل وأجمع من سبل السلام ، إنها من تلك الكلمات المصطفاة التى لا تفسر بغيرها من الكلمات والألفاظ .

إن هذه السبل كلها مؤدية إلى ذلك « الصراط » الذى يدعو إليه

(١) سورة المائدة : ٤٨ .
(٢) سورة المائدة : ١٥، ١٦ .
(٣) سورة إبراهيم : ١، ٢ .
(٤) سورة الحديد : ٩ .
(٥) سورة البقرة : ٢٥٧ .

الرسول ، وليست هى تلك السبل التى تفرق وتبدد ، ويدعو إليها الشيطان .

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾(١) .

وهنا لابد من لفتة ووقفة قصيرة عند التعبير القرآنى المحكم البليغ الذى يذكر « النور» دائمًا مفردًا واحدًا ، ويذكر الظلمة «الظلمات » جمعًا وتكثيرًا ، لأنه متى فقد الإنسان نور الوحى ــ الذى لا يتعدد أصله ــ تعددت عليه الظلمات وتنوعت وتداعت من كل صوب وحدب حتى لا يحصى لها عددًا ، ويواجه على كل شعب من شعاب الحياة ، وكل درب من دروبها ، ظلامًا فوق ظلام .

ولو وضعنا « نور الدين القيم » فى جانب ونحيناه عن حياتنا ، فهل يبقى فى هذه الدنيا الواسعة إلا ظلمات متراكمة ، وحجب من الظلام كثيفة ؟ وهل يبقى غير التيه والضلال فى طريق الوصول إلى اللّه ؟ وغير الطقوس والتقاليد فى الديانات ؟ وغير الحمق والجهل والخرافة فى الاعتقادات ؟ وغير الأوهام والأحلام فى التصورات ؟ وغير القياس والرأى والظن والتخمين فى العلوم والصناعات ؟ وغير الجور والعسف فى الاجتماع والمعاملات ؟ وغير التجارب والاختبارات فى القانون والسياسات؟ وغير البغى والسطو والطغيان فى الدول والحكومات ؟ هل يبقى غير ذلك ؟ كلا ، إنها :

﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ (٢) .

إنه ليس فى ظلمات هذه الحياة الكثيفة الحالكة منارة نور ، إلا «نور اللّه » الذى أضاء به السماوات والأرض .

---

(١) سورة الأنعام : ١٥٣ .   (٢) سورة النور : ٤٠ .

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[١] .

لقد كان تعبير القرآن لأجل ذلك عن النور بالفرد [٢] . وعن الظلمات بالجمع ، فمن لم يحظ بهذا النور فلا نور له :

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾[٣] .

إن الذين يخرجون فى ضوء مشاعل الأنبياء ومنارات المرسلين من ظلمات هذه الدنيا ومتاهات الضلالة والعمى إلى نور النهار ووضح الهدى، يحيون حياة جديدة وما حياة الأعمى إلا شقاء وضلال ، إنهم يعودون أصحاب بصر ، ويحسون بأنفسهم وقد تفتحت لهم العيون ، وحدت الأبصار ، فتتجلى لهم طرق هذه الحياة ودروبها كما تستنير بهم الآخرة ، ويرون سبل السلام ، والصراط المستقيم فى وضوح وجلاء ، يمشون فى رحلة الحياة الطويلة المعقدة بخطاهم الثابتة فى نور اللّه ، ولا يقعون فى أى مزلق أو مزلّة ما داموا متشبثين بنور اللّه وهداه .

ولا أجمل ولا أروع فى تصوير الفرق الهائل بين الحالتين : حالة العمى وحالة البصيرة من تعبير القرآن الكريم :

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي

---

(١) سورة النور : ٣٥ .

(٢) والنور ليست من الكلمات التى لا تجمع ، فهو يجمع على أنوار ، كما توجد هناك ألفاظ أخرى بمعناه ، ولا يصح القول بأن جمعه غير بليغ ، فماذا يبقى بعد استعمال القرآن إياه من شك فى بلاغته ؟ ولكن القرآن يهدف بإفراد النور وجمع الظلمات إلى حقيقة أخرى مهمة ، ويلفت إليها الانتباه ، لعلهم يتفكرون .

(٣) سورة النور : ٤٠ .

الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ (١) .

وقد وعد اللّه ــ سبحانه ــ بهذا النور على اتباع القرآن ، وعلى تقوى اللّه والإيمان برسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ (٢) .

وإن كلمة « تمشون به » وكلمة « يمشى به فى الناس » لتشيران إشارة واضحة إلى أن هذا النور ليس خاصًا بالآخرة ، بل إنما هو نور البصيرة، والفرقان المبين اللذين يمشى بهما الناس فى حياتهم الدنيوية وجميع شئونهم فيها ، إنهم يقومون بجميع أعمالهم وشئونهم فى ضوء الوحى الإلهى والهداية النبوية ، والفرقان المنزل عليهم من عند اللّه ، وأن سيرتهم فى الحياة تتميز تميزًا واضحًا عن سير جميع الشعوب الكافرة، ومناهجهم فى الحياة ،وليست لهم هذه الميزة النيرة إلا لقيام منهجهم مبدئيًا على الوحى والرسالة لا على الآراء والظنون ، وقد أشير إلى هذه الصلاحية المميزة الحاسمة فى آية أخرى .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (٣) .

لأجل ذلك وصف اللّه سبحانه وتعالى هذا القرآن بـ «النور» و«البصائر»و«الهدى»و«البينة»و«الموعظة»و«الشفاء»و«الذكرالمبارك» إلخ .

٦ ــ القرآن الكريم هو تلك المرآة الوضيئة ، التى يرى فيها الناس ذوو العقائد المختلفة والتصورات المتنوعة وأصحاب الأخلاق والأعمال

---

(١) سورة الأنعام : ١٢٣ .

(٢) سورة الحديد : ٢٨ .

(٣) سورة الأنفال : ٢٩ .

المتباينة ، وجوههم وملامحهم ، وسماتهم ، فإنهم ذكروا فيها إما تصريحًا أو إيماءً ، أو تلويحًا بقصص الماضين وسيرهم الغابرة ، أو مباشرة وقصدًا لأعيانهم .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُم (١) أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (٢).

لقد ذكر الإمام أبو عبد الله محمد بن نصر المروزى البغدادى (٢٠٢ـ ٢٩٤ هـ) ـ وهو المحدث الجليل المعروف ، ومن تلامذة الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى (م ٢٤١ هـ) ـ فى كتابه : « قيام الليل » (٣) ، قصة مثيرة مؤثرة تدل على فهم السلف للقرآن الكريم وتدبرهم فيه ، وتعين على تفسير هذه الآية وإدراك بعض معانيها .

عن الأحنف بن قيس أنه كان جالسًا يومًا فعرضت له هذه الآية :

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ ، فانتبه فقال : عليَّ بالمصحف لألتمس ذكرى اليوم حتى أعلم مع من أنا ومن أشبه ، فنشر المصحف فمر بقوم :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (٤) .

---

(١) فسرت كلمة « الذكر » هنا بمعنيين : بمعنى « الشرف» كما روى عن ابن عباس ــ رضى الله عنه ، وبمعنى القصة وبيان الحال كما روى عن مجاهد ــ رضى الله عنه .

(٢) سورة الأنبياء : ١٠ .

(٣) طبع هذا الكتاب باسم « قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر » بمصر وبملتان ، وهو فى الأصل مجموعة لثلاث من رسائله ، وقد لخصها العلامة أحمد بن على (م ٨٤٥هـ) .

(٤) سورة الذاريات : ١٧ ــ ١٩ .

ومر بقوم :

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١) .

ومر بقوم :

﴿ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ (٢) .

ومر بقوم :

﴿ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣) .

ومر بقوم :

﴿يُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٤) .

ومر بقوم :

﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ . وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(٥) .

قال : فوقف ، ثم قال : اللهم إني لست أعرف نفسي ههنا ، ثم أخذ في السبيل الآخر ، فمر بقوم :

﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ

---

(١) سورة السجدة : ١٦ .
(٢) سورة الفرقان : ٦٤ .
(٣) سورة آل عمران : ١٣٤ .
(٤) سورة الحشر : ٩ .
(٥) سورة الشورى : ٣٧، ٣٨ .

مَّجْنُونٍ ﴾(١) .

ومر بقوم :

﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(٢) .

ومر بقوم يقال لهم :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾(٣) .

قال : فوقف ، ثم قال : اللهم أبرأ إليك من هؤلاء ، قال : فما زال يقلب الورق ويلتمس حتى وقع على هذه الآية :

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٤) .

فقال : اللهم هؤلاء .

٧ ــ القرآن يتناول ذكر تلك الأمم والشعوب : ويختارها للعرض والقصص التى لا تنقطع أوضاعها وأعمالها ، ولا تنتهى صورها وأخلاقها، بل تتكرر على مدار التاريخ ، كما أنه ما تعرض لتلك الجرائم والذنوب التى لا تكون إلا نادرة ، شاذة ، يخترعها الإنسان فى فترة من الفترات بذكائه وحنكته الإجرامية ، إنه تعرض لجرائم تتكرر فى الشعوب والأفراد ، وذنوب تشيع بين الناس .

(١) سورة الصافات : ٣٥،٣٦ .
(٢) سورة الزمر : ٤٥ .
(٣) سورة المدثر : ٤٢ ــ ٤٧ .
(٤) سورة التوبة : ١٠٢ .

في ضوء ما أسلفنا من الحقائق الواضحة وغيرها مما لم نتعرض له ، يتجلى القرآن الكريم كتابًا حيًا غضًا دائم النضارة والبقاء ، لا تبلى جدته، ولا يؤثر عليه الماضى والحال ، والقديم والجديد ، إنه فوق التطورات وفوق الأحداث ، وإنه ليخاطب كل فترة من فترات التاريخ ، وكل مدنية من مدنيات الأرض ، وإن دعوته حية طرية ، ورسالته غضة نضرة ، إنه صورة البشر الناطقة ، ومرآة الفطرة الإنسانية الوضيئة الصافية ، ولقد قال عنه منزله بحق :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(١) .

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٢) ، ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِى الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الزمر : ٢٧ .

(٢) سورة النور : ٣٤ .

(٣) سورة يوسف : ١١١ .

الإعجاز القرآني

لقد ادعى القرآن الكريم أنه معجزة وتحدى كل البشر الذين تتلجلج نفوسهم في الإيمان به ، والاعتراف بأنه كتاب الله ، اقرأ هذه الآيات التالية :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١) .

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٢) .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(٣) .

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾(٤) .

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(٥) .

(١) سورة البقرة : ٢٣ .
(٢) سورة يونس : ٣٨ .
(٣) سورة هود : ١٣، ١٤ .
(٤) سورة بني إسرائيل : ٨٨ .
(٥) سورة القصص : ٤٩، ٥٠ .

مجالات الإعجاز القرآني :

لقد تحدى القرآن الكريم في هذه الآيات التي سقناها جموع المشركين والمرتابين المترددين في أمره ، بأن يأتوا بمثله ، ولا يمكن أن يكون أي كلام مماثلا للقرآن الكريم إلا إذا كان مثله في جميع مجالات إعجازه وجميع مميزاته وخصائصه .

ومعلوم أن القرآن ليس معجزًا في ألفاظه وتراكيبه ، وفصاحته اللغوية وبلاغته المعنوية فحسب ، بل إنه معجز في ألفاظه ومفرداته ومركباته ، معجز في معانيه ، ومحتوياته ، معجز في علومه ومعارفه ، معجز في غيبياته وحقائقه الأبدية ، معجز في تعليماته الدينية والخلقية والاجتماعية والمدنية ، معجز في تأثيره وإثارته ، ومعجز في نبوءاته وأخباره ، فإذا ظهر العجز من الإتيان بمثله في ألفاظه وتراكيبه فحسب فكيف يا ترى بمماثلته في جميع وجوه إعجازه ؟

وتطلعنا الآية رقم : [١٤] من سورة هود أن الخصيصة المميزة للقرآن وسر إعجازه المكنون يرجع إلى أنه : ﴿ أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ فهو مظهر من مظاهر علم الله، وعكس من عكوسه ، فكيف يجاريه الإنسان بعلمه الناقص الظني، القاصر المحدود الموهوب له كرضخة من رضخات الفيض الإلهي من لدن حكيم عليم ، فإذا كان هو لا يماثل ربه في أسمائه وصفاته ، فكيف يماثله في علمه ، وهو من أخص خصائصه وصفاته :

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١) .

---

(١) سورة هود : ١٤ .

﴿ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ هى تلك النقطة المركزية التى تدل على أن اللّه ـ عز وجل ـ متوحد فى صفة علمه كما هو متوحد فى جميع صفات الألوهية ، لا ند له ولا نظير ، ولا شبيه ولا مثيل ، فكيف إذن وأنى يؤتى بمثل الكتاب؟!

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(١) .

ومعلوم أن « علم اللّه » لا ينحصر فى الألفاظ والتراكيب الظاهرة ، بل إنه أمس بمعانيه وحقائقه ومحتوياته ، وقد وصف القرآن الكريم نفسه بـ « قرآنًا عربيًّا » و « لسان عربى مبين » و « كتاب مبين » وأمثاله من الأوصاف فى متفرق آياته ، مما تشير إلى فصاحته اللغوية ، وروعته البيانية ونصاعته الأدبية .

﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(٢) .

﴿ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾(٣) .

وطالبهم القرآن الكريم فى الآية رقم : [٤٩] من سورة القصص بأن يأتوا بكتاب أفضل من هذا الكتاب هداية وإصلاحًا وعلاجًا للقلوب :

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٤) .

فالإعجاز القرآنى إذن ليس منحصرًا فى فصاحته اللغوية ، وبلاغته المعنوية وألفاظه المختارة وتراكيبه المنتقاة فحسب ، إنما هو جانب من جوانب إعجازه الكثيرة .

وإن علماءنا البلاغيين المتقدمين كلما تأملوا فى إعجاز القرآن أو ألَّفوا

---

(١) سورة الأعراف : ٥٢ .
(٢) سورة يوسف : ١، ٢ .
(٣) سورة النحل : ١٠٣ .
(٤) سورة القصص : ٤٩ .

فيه غلب عليهم ـ لميول العصر ولتذوق العرب البياني وأهمية اللسان ودوره ـ هذا الجانب الخاص من إعجاز القرآن ، ولا غرو فقد أثبتوا فيه من دقة النظر وحسن الملاحظات وجمال الذوق ما ينتفع به دائمًا ، وأودعوا فيه عصارة ذكائهم وخلاصة فكرهم وتأملاتهم وقدموا لنا ثروة ضخمة في هذا الموضوع ، ليس من السهل الزيادة فيها ، وينبغي في هذا الموضوع أن يرجع إلى مؤلفاتهم ويستفاد منها(١) .

أكبر مجالات الإعجاز القرآني وأولها الإسلام :

لقد قدم القرآن الكريم أمام العالم صحيفة هداية أخيرة خالدة للدين والعقائد لم تسبق بصحيفة أكثر منها إحكامًا وإتقانًا وتفصيلاً على وجه الأرض ، وقد كانت الديانات السابقة ـ لرسالاتها المحدودة بعصورها القاصرة على شعوبها ـ وصحفها التي حملتها لم تبلغ نضجها وكمالها بالنسبة إلى هذه الصحيفة الأخيرة .

ولما أنها صحيفة ربانية سماوية وقد نزلت إلى الأرض ، فلم يبق سواها كتاب هداية وصحيفة إرشاد في الوجود ، ولا يمكن أن يتصور الإنسان صحيفة هدى ونور أكثر من هذه الصحيفة ربطا للمخلوقين بالخالق، وأعظم تزكية للنفوس، وصقلا للقلوب، وأرفع بالناس عن تخفض

(١) يُرجَع لذلك عند الحاجة إلى التفصيل إلى كتاب « إعجاز القرآن » للعلامة أبي بكر الباقلاني، و « إعجاز القرآن » لابن العربي ، وللاختصار كتاب « النكت في إعجاز القرآن» للرماني ، وكتب البلاغة والبيان الرائدة ، ومن الكتب القديمة فيها كتابا « دلائل الإعجاز» و « أسرار البلاغة » للإمام عبد القادر الجرجاني ، ومن كتب المتأخرين « كتاب الطراز » للأمير يحيى اليماني ، ويراجع من كتب التفسير « تفسير الكشاف » للعلامة جار الله الزمخشري ، ومن كتب النحو والمعاني والبيان كتاب « الفوائد المشوقة للقرآن » للحافظ ابن القيم ، وكتاب « النبأ العظيم » للعلامة محمد عبد الله دراز ، وهو من العلماء المعاصرين ولكن كتابه يستحق الدراسة والاستفادة .

الضلالات والانحرافات التى وقعت فيها الشعوب ، ومنيت بها الأمم .

كما أنها وهبت للحياة الإنسانية دستورًا مدنيًا وخلقيًا يضمن أفضل النتائج الخلقية والاجتماعية ، وقد حققها فعلا ومارسها ممارسة تطبيقية ، كما أنها تحل بطريقته المعجزة ولمحاته المنيرة ، وإشاراته اللطيفة جميع قضايا الاجتماع وعقده ومشاكله التى تعرضت لها الإنسانية أو يمكن أن تتعرض لها فى المستقبل إلى أن تقوم الساعة .

إنها تعطى تلك الكليات والتصورات الأساسية التى يمكن أن يقوم عليها أى مجتمع أفضل فى أى دور من أدوار التاريخ ، وتنظم الحياة الإنسانية فى كل بقعة من بقاع الأرض من جديد .

إنها صحيفة إلهية ، ولذلك فهى بريئة من الغلطات الإنسانية والسقطات البشرية ، وقصور التقنين البشرى ، واختلاف القياسات البشرية ، إنها الصحيفة الأخيرة ، ولذلك فهى غنية عن كل زيادة وإلحاق وتكميل ، إنها صحيفة عالمية شاملة ، ولذلك فهى فوق الحدود والحواجز العرفية ، إنها الصحيفة الدائمة ولذلك فهى محفوظة من كل نسخ وتغيير وتبديل ، إنها الصحيفة الكاملة ولذلك فهى فى غير حاجة إلى ملحق وتتمة أو استدراك .

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾(١) .

إن هذا القرآن إذا تم تنفيذه وتطبيقه عمليا لا يتعرض المجتمع لتلك المباحث المعقدة والمسائل الطريفة التى شغلت عقول المفكرين ورجال الاجتماع البارعين آلافًا من السنين ، والتى لم تعرض حلولها الأخيرة

(١) سورة المائدة : ٣ .

الحاسمة بعد .

وكم من قضايا ومشاكل اقتصادية وسياسية لا يعرفها الإسلام ولا تنشأ فى مجتمعه إطلاقًا ، وكم من حلول علمية وفكرية وصل إليها العقل البشرى بعد تجارب آلاف من السنين ، كشف عنها النبى الأمى بكتاب ربه قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان ، إن هذا الدستور وهذه الصحيفة المرشدة الهادية ، وهو الإسلام ، ليس إلا صنع العليم الحكيم ، ونموذجًا كريمًا عاليًا من نماذج حكمته وعلمه وتقديره .

﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾(١) .

ولما كانت قواعد الإسلام وأصوله وكلياته مقتبسة من القرآن الكريم، صادرة منه ، والقرآن هو الذى تقدم بها أمام الناس وعرضها عليهم ، فهى من إعجازه بل من أكبر معجزاته :

﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢) .

إن بيان هذا الإعجاز القرآنى ، والكشف عن وجوهه ومناحيه يقتضى بيان الإسلام بجميع شعبه وأركانه الذى لا تسعه مكتبة ضخمة ، وسوف يرد شىء منها فى مواضعه ، فتركيبه المعجز فى باب العقائد والتصورات، وتكميلها المعجز ، وشموله المعجز فى الأخلاق والاجتماع وإحاطته المعجزة ، كل ذلك يدعو إلى التأمل الدقيق ، ولا يسع أى إنسان من البشر أن يحصى هذه الأسرار والحقائق ، ويستوعب جوانب الحسن والجمال والإتقان والإحكام .

---

(١) سورة النمل : ٨٨ .   (٢) سورة الجمعة : ٢ .

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١) .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾(٢) .

٢ ـ المعجزة الثانية للقرآن علومه ومعارفه :

إن المعجزة الثانية للقرآن الحكيم هى تلك العلوم والمعارف الواسعة الشاملة والحقائق والأسرار الدقيقة اللطيفة التى تنبث فى هذا الكتاب ، والتى تستحق كل واحدة منها أن تعد معجزة برأسها ، وكلما تطور علم الإنسان ، وبلغ مراحل النضج والاكتمال ، وانكشفت عنه حجب الجهل والغموض ، تجلى له جمال القرآن ، وروعته ، وإحاطته .

ولكن الذكاء البشرى محدود النطاق ، ضيق الأفق ، لا يسع ضخامة محتويات القرآن ورحابة آفاقه المترامية ، ويكفيه أن يدرك منه قدر ما يملأ به وعاءه .

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾(٣) .

وإن هذه الوحدات المعجزة تحمل فى طياتها جوانب عديدة من الإعجاز ، جانب الحتمية والقطعية والأبدية فى الحقائق القرآنية ، وهذه الحتمية والأبدية ، من خصائص العلم الإلهى ، وليس الشك والتطور والاضطراب إلا من لوازم العلم البشرى وخصائصه ، ولما أن القرآن الكريم محفوظ من لدن حكيم عليم ، لذلك لا يتطرق إلى أبديته

---

(١) سورة لقمان : ٢٧ .

(٢) سورة الكهف : ١٠٩ .

(٣) سورة الرعد : ١٧ .

وحتميته شىء .

خلط العلم البشرى بالعلم الإلهى فى الصحف الدينية القديمة :

إن صحف الديانات والكتب المقدسة فيها عندما تتعرض لسطو البشر وعبثهم وتحريفهم . فإنها تدخل فيها أشياء ما أنزل اللّه بها من سلطان ـــ ما دام الله لم يتكفل بصحتها وحفظها ـــ وتغزوها نظريات إنسانية ومعارف بشرية ، وما دام العلم البشرى غير معصوم وغير حاسم رغم قصوره ونقصه فإن هذه الصحف ـــ نتيجة تدخل هذا العلم البشرى الناقص المحدود ـــ تفقد قوة استنادها وقطعيتها وأبدية حقائقها وكلياتها .

والقرآن المحكم قطعى من ألفه إلى يائه ، لم تدخله آراء البشر ولا نظرياتهم ، ولم تكد تمسه تحقيقاتهم وتجاربهم ، ومهما ازدهرت العلوم والمعارف وبلغت من الرقى ما بلغت ، ومهما تطورت النظريات البشرية ، ومهما يثبت العلم أن الأرض هى محور الكون أو الشمس ؟ وأنها مسطحة أو كروية ، وأن الكواكب معمورة أوْ لا ، وأن العوالم متعددة أو أنه ليس هناك إلا عالم واحد ،مهما يكن من ذلك أو غير ذلك فإن الحقائق القرآنية لا تتأثر ولا تنفعل ، إنها ليست النظام « البطليموسى » الذى يتقوض من أساسه بالنظام «الكوبرنيكى» .

هذا هو القرآن ، أما صحف العهد القديم والعهد الجديد (التوراة والإنجيل) فإنها لم تأمن غوائل التحريف وسطو الآراء البشرية ، إنها قد غزتها النظريات والآراء التى راجت ونالت القبول فى الجمهور فى عصور الظلام فى أوربا ـــ وكلها عصور ظلام ـــ إنها تصرح بأن عمر هذه الكرة الأرضية ستة آلاف سنة ، وأن الأرض مسطحة مستوية ، وأن الشمس والقمر والنجوم تدور حول الأرض ، وأن الأرض محور الكون وأن

غيرها من الأجرام الفلكية والكواكب السيارة كلها تابعة لها ، تخضع لسلطانها ، وأن العمران على الصفحة الثانية من الأرض مستحيل ، وذلك كما يقول « أغسطين» : « لأنه لم يذكر أحد من أولاد آدم ـــ عليه السلام ـــ من هذا النوع الذى يعيش فى الجهة الثانية من الأرض ، كما أن الدليل الأكبر على امتناع أن تكون الأرض كروية الشكل هو أن الناس كيف يرون ربهم يوم الحشر ـــ لو كان الأمر كذلك ـــ ينزل عليهم من السماء ؟! » .

إن هذا التاريخ والعلم « الملهم » يمكن أن يكون فى عصر المؤلفين والشارحين للكتب المقدسة هذه ، علمًا مطابقًا لتحقيقاتهم وكشوفهم المقررة المعروفة ولكنها لم تكن لازمة الثبوت والصحة ، لقد كانت هى مرحلة من مراحل العلم البشرى ، والإنسان لم يزل ولا يزال يقطع أشواطه فى العلم ولا تنقطع عصا التسيار ولا يلقى بها .

إنه كلما يتقدم يخلف وراءه تلك المرحلة التى يراها هى المنزل حتى جاء حين من الدهر أصبح فيه العلم لا يمشى مع الدين ، فكان الصدام بين العلم والدين ، وقد كان هذا الصدام بينهما مرحلة أولى حاسمة فى سقوط الدين وهزيمته فى أوربا .

إن الإسلام فى تاريخه الطويل لم يمر ـــ ولا تحلة للقسم ـــ بهذا الصدام النكد للحظة واحدة ، ولن يمر .

يمكن أن تتصادم المعلومات البشرية والمعارف البشرية ، وقد تصادمت ، وسيكون منها حق ومنها باطل ، ويمكن أن تكون كلها باطلة لا أساس لها من الواقعية والصحة ، ولكن من المستحيل واقعًا وأساسًا أن تتصادم الحقائق والتصريحات القرآنية ، والعلوم والمعارف التى احتوى

عليها هذا الكتاب ، إن كل علم يصادم القرآن ليس علمًا ، إنما هو خرافة، ووهم وحلم .

العلم الجديد والكشوف الجديدة تصدق القرآن :

إن البحث فى القرآن الكريم عن حقائق العلم الحديث أو كشوفه الحديثة والتطبيق بين بعض إشاراته الإجمالية وبين الكشوف الجديدة والتحقيقات الجاهزة ــ الذى قام به على النطاق الواسع فى هذا القرآن العلامة الطنطاوى الجوهرى المصرى فى تفسيره « جواهر القرآن » ويسعى له باحثون فى تحقيقاتهم العلمية ــ جهد شائك ، ودقيق خطير ، لأنه من الممكن جدًا ــ وقد أيدت التجارب ذلك مرات وكرات فى تاريخ العلم والبحث ــ أن تتغير نتائج هذه البحوث والمعارف التى يراها الناس اليوم من أجلى البديهيات وأظهر الحقائق رأسًا على عقب أو تصبح موضع شك وتردد ، وتفقد بداهتها وقطعيتها .

ثم إن الجهد العلمى ــ الذى لاينكر إخلاص القائمين عليه ، وجديته وإفادته فى بعض الأحيان ــ يبعد بالقرآن الكريم عن موضوعه الرئيسى وغايته الأساسية ، وتشم منه رائحة الخضوع للعلم الجديد والابتهار بالكشوف العلمية الحديثة .

وقد أخطأ بعض المفسرين المتقدمين هذا الخطأ نفسه فيما يتعلق بالفلسفة القديمة والروايات التاريخية المشهورة ، ولكن لما أن نصيب ذلك من تفاسير القرآن الكريم وثروتها الضخمة كان ضئيلاً قليلاً ، ولم يجد قبولاً ولا رواجاً فى أوساط المسلمين العلمية ، لذلك لم يتعرض القرآن لمثل تلك المحنة التى تعرضت لها كتب العهد القديم بالزيادات والشروح

والإلحاقات الفلكية والجغرافية والطبيعية والتى أسميت فى العالم المسيحى فى القرون الوسطى بالجغرافية المسيحية المقدسة
(Christian Topography)

ولكن الدارس المنصف من ذوى الفطرة السليمة ـ الذى لا يجمد جمود الجاهلين ولا يخضع لكشوف العلم خضوع المستسلمين المنبهرين ـ يدهش عندما يطلع على هذه الحقيقة العجيبة حقًا ، وهى أن هذا الكتاب رغم كونه قد نزل على رسول أمى قبل أربعة عشر قرنًا من الزمن فى البيئة العربية المحدودة المنعزلة عن دنيا العلم والمدنية ، احتوى على عدد من الحقائق التى تتعلق بالتاريخ والجغرافية والطبيعة والفلك والأجرام السماوية وعلم الحياة ، والطب ، وخلق الإنسان وتكوينه وتركيب أعضائه وغيرهما من كثير من المعارف والعلوم التى انكشفت عنها فى القرون الأخيرة معلومات وحقائق ، وتغيرت أوضاع العلم البشرى تغيراً جذريًا ، وليس فيه ما أثبت العلم الحديث ، وكشوفه ، خلافه ومنافاته للواقع ، بل قد وردت فيه حقائق ولفتات لم يكشف عنها العلم إلا قريبًا ولم يبلغ إليه إلا بالأمس .

إن تفصيل هذا الإجمال لا يقتضى كتابًا واحدًا بل سلسلة كتب ومؤلفات ، فنكتفى هنا بشهادة واحدة لباحث فرنسى فاضل ، فقد صدر قريبًا للأستاذ الفرنسى الباحث موريس بوكاى (Maurice Bucaille) فى كتابه (The Quran and Science) (The Bible) وترجمته العربية باسم «دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة » ، يقول فيه المؤلف الفاضل :

« ولقد أثارت هذه الجوانب العلمية التى يختص بها القرآن دهشتى العميقة فى البداية ، فلم أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير ـ إلى هذا

الحد ــ من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ، ومطابقة تمامًا للمعارف العلمية الحديثة ، وذلك فى نص كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا »[1] .

ولقد وصل المؤلف بعد مباحث قيمة تستحق الدراسة حول خلق السماوات والأرض ، وإيجاد هذا الكون ، والأجرام الفلكية ، وطبيعة الأجرام السماوية وتطور العالم السماوى وغزو الفضاء ودورة الماء والبحر وتضاريس الأرض والجو الأرضى وعالم النباتات والحيوانات ، ونشأة الحياة والتناسل الإنسانى ، وتربية الجنين ، والحوادث التاريخية الكبيرة (كطوفان نوح ، وتحديد زمن إقامة بنى إسرائيل فى مصر ، وخروج سيدنا موسى ــ عليه الصلاة والسلام ــ من مصر ، وتحديد فرعون موسى ، وكيفية هلاكه وغير ذلك) [2] وبعد عقد موازنات بين القرآن الكريم وصحف العهد القديم فى ضوء الكشوف الجديدة فى عالم الطبيعة والفلك وعلم الحياة ، والطب والتاريخ وصل إلى هذه النقطة الحاسمة :

« إن مقارنة عدد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات فى القرآن تبرز الفروق الأساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علميًا وبين مقولات القرآن التى تتواثق تمامًا مع المعطيات الحديثة »[3] .

ويختم المؤلف كتابه العلمى الجيد بهذه السطور التالية :

« ولا يستطيع الإنسان تصور أن كثيرًا من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر ، وهذا بسبب حالة المعارف فى عصر محمد

---

(١) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ، لموريس بوكاىء (طبع دار المعارف ــ القاهرة) ص ١٤٤ .

(٢) انظر لهذه المباحث العلمية بتفصيل الكتاب المذكور ص١٥٧ ــ ٢٧١ .

(٣) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ص ٢٨٦ .

ﷺ ، لذا فمن المشروع تمامًا أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحى من اللّه ، وأن تعطى له مكانة خاصة جدًا حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه وحيث إن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة فى عصرنا تبدو كأنها تتحدى أى تفسير وضعى ، عقيمة حقًا المحاولات التى تسعى لإيجاد تفسير للقرآن بالاعتماد فقط على الاعتبارات المادية » [1] .

وهكذا فإنه لا تأثير على القرآن الكريم للميول والنزعات البشرية المؤقتة من اقتصادية واجتماعية وسياسية ، وإن هدايته وإنارته للطريق فى هذه الأمور العلمية أيضًا أبدية حتمية قاطعة .

---

(١) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ص ٢٨٦ .

إثبات الوثائق التاريخية العتيقة ، وتصديق الباحثين المسيحيين المعاصرين الحديثة ، لما جاء فى القرآن من : تبرئة المسيح ـ عليه السلام ـ من الصلب والقتل

من الآيات الباهرة ، والدلائل الجلية القاهرة ، على صدق وتحقّق ما جاء فى القرآن من قصص الأنبياء والأمم ، وعرض العقيدة الصحيحة ، والردّ على العقائد الباطلة ، تبرئة القرآن سيدنا عيسى ابن مريم من الصلب والقتل، وكونه بريئا من كل ما يدّعيه اليهود ويعتقده المسيحيون من ذلك.

إن من العقائد اليهودية والمسيحية الأساسية ، وكالقطعى البديهى المتفق عليه والمتوارث عندهم ، أن المسيح ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ إنما صلب وفارق الحياة (عقوبة وانتقامًا عند اليهود ، وكفارة لأتباعه ، وتخليصًا لهم من العقوبة والمؤاخذة على الأعمال والذنوب عند المسيحيين) وذلك بعد ظهور بولس الراهب Saint pall المتوفى سنة ٦٥م لأغراض خاضعة لميثالوجية رومية ،وسياسة استعمارية[١] ، والقرآن يردّ على ذلك وينفيه نفيا باتا ، فيقول اللّه تعالى :

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا . وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا

(١) ليراجع كتاب (Islam or True Christionity) لمؤلفه Eruset de Bunson .

حَكِيماً﴾(١) .

ولا يفهم ذلك إلا فى ضوء الخلفيات التاريخية والظروف التى حدثت فيها هذه المحاولة ، وخلاص المسيح ــ عليه الصلاة والسلام ــ من هذا المخَطّط الدقيق الرهيب ، الذى وضعه اليهود ، معاداةً لدعوته ، وقضاءً على خطر انتشار ما يدعو إليه من الدين السماوى الصحيح ، والتعليمات الصالحة المصلحة ، والحكاية كما يلى :

عيل صبر اليهود وفاضت كأس عدائهم وعنادهم ، فأرادوا التخلّص من سيدنا عيسى ، فرفعوا قضيته إلى الحاكم الرومى Pilates ، وقالوا : إنه رجل ثائر فوضوى مرق من ديننا ، واستهوى شبابنا ، ففتنوا به ، وفرّق أمرنا، وسفه أحلامنا ، وشغل بالنا .

وأضافوا إلى ذلك ــ بدهائهم ومعرفتهم لنفسية الحكومات والحكام ، وبما عندهم من حساسية زائدة لما يصبح خطرًا على الدولة ــ وهو خطر على الدولة ، لا يخضع لنظام ، ولا يتقيد بقانون ، ولا يعظم عظيمًا ، ولا يقدّس قديمًا ، وهو رجل ثورى إذا لم يكفّ شره فإنه يتفاقم ، ولا تُستصغر الشرارة مهما كانت تافهة .

وكان كلامًا مملوءًا بالمكر والدهاء ، مصبوغًا بالصبغة السياسية ، وكانوا يعرفون أن الجانب الدينى لا يُثير الحكام ولا يهيجهم ، فقد كان من سياستهم ألا يتدخلوا فى الأمور اليهودية الدينية ، ولذلك خلطوا الكلام بالسياسة .

وكان من الصعب أن يتحقق الحكام الأجانب المشركون(٢) حقيقة

---

(١) سورة النساء : ١٥٥ ــ ١٥٧ .

(٢) كانت الحكومة حكومة الروم ، وكانت سوريا (الشام) التى فيها مولد المسيح وموطنه ،=

الأمر، ويعرفوا أغراض اليهود،وسبب عدائهم للمسيح ـ عليه السلام ـ وكانوا فى شغل شاغل عن ذلك بالأمور الإدارية [١] ، ولكن اشتد إلحاح اليهود وعلت أصواتهم بالمطالبة بحكم الإعدام ، وأمر المسيح ـ عليه السلام ـ وإجباره على حمل الصليب الذى يكون جاهزًا فى المحكمة[٢] .

زد إلى ذلك أن ذلك كان يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت ، وكان اليهود لا يعملون شيئًا ـ ولا يزالون على ذلك ـ يوم السبت ، وكان يوم السبت عندهم يوم عطلة وكفّ عن العمل ، فكانوا حريصين كل الحرص على أن يصدر الحكم قبل أن تغرب الشمس يوم الجمعة ، وإلا ستظل المشكلة كما هى ، وتفوت الفرصة .

زد إلى ذلك أن عيدا من أعياد اليهود المهمة وهو عيد الفسحPassever كان يلى ذلك اليوم ، ولا مساغ فيه لتحقيق مآربهم[٣] .

وقد ضاق الحاكم بالقضية ذرعًا ، وليست له فيها رغبة ولا لأُمّته فيها مصلحة ، بل هنالك مخافة لحدوث ما لا تحمد عاقبته من تفضيل طائفة على طائفة . والقضاء على من لم تتحقق قضيته ، فامتنع برهة ، ولما اشتدّ الضجيج (وكان اليهود قد احتشدوا لسماع الحكم ، يتظاهرون بالعداء للمسيح ـ عليه السلام ـ وكونه خطرًا دينيًا وسياسيًا) والشمس قد

= محكومة للروم غير التابعين لدين من الأديان السماوية ، وقد جاء فى إنجيل لوقا أن قاضى المحكمة الذى كان اسمه Pilates كان شديد التردد والحيرة فى إصدار حكم الإعدام على سيدنا المسيح ـ عليه الصلاة والسلام (إنجيل لوقا ، باب: ٢٢ ،الآيات: ٢١ ـ٢٥).

(١) كما هو شأن الحكومات فى المستعمرات والبلاد المحكومة بالأجانب .

(٢) إنجيل لوقا ، باب : ٢٢ ، الآيات : ٢١ ـ ٢٥ .

(٣) إنجيل متى ، باب : ٢٧ ، الآية : ٣١ .

مالت للغروب ، وعلت الأصوات والهتافات ، فأصدر الحاكم الحكم على المسيح ـ عليه السلام ـ بالقتل صلبًا [1] .

وكان سيدنا المسيح ـ عليه السلام ـ لاغبًا هازلاً ـ لمعاناته لعداء اليهود أو مجابهتهم ، وفوّض الحاكم الصليب ـ الذى كان خشبًا ثقيلاً ـ وكان من الشرائع الرومية القضائية أن من يصدر عليه حكم الصلب ، يحمل الصَّليب إلى المشنق ، مهما كان بعيدًا ، وكان لا يزال موجودًا فى المحكمة ، فحمله ومشى سيدنا المسيح ـ عليه السلام ـ وتبعه اليهود وأطفالهم يعاكسونه ويهزأون به ، فكان يمشى على بطء ، والحمل ثقيل والحامل هزيل ، وكان بعض التابعين اليهود من السابقين والمعاكسين ، منهم رجل اسمه شمعون وكان كرينيًّا ، فكلفه الشرطة حمل الصليب ، ليتخلصوا ويتخلص اليهود من قضية المحكوم عليه بالصلب ، ويتم كل ذلك قبل غروب الشمس [2] .

ولما وصل ذلك الحشد إلى المشنق ، هنالك اختلط الحابل بالنابل ، وكان من التقاليد المتبعة ، أن المصلوب يعرف بحمله الصليب ، فأخذ الموكل بهذه العقوبة وتنفيذ الأمر شمعون الكرينى ، ورفعه على الخشبة ، وهو يصرخ ويهتف أنه ليس المحكوم عليه بالصلب والإعدام ، وإنما حمل الصليب ليصل الموكب والمحكوم عليه بالصلب فى وقت قريب قبل غروب الشمس ، فلم يعره الموكل بهذا الأمر التفاتًا وأخذه وصلبه .

وأقبل الحشد ينظر إلى هذا التجمع والوجوه لأفراد ينتمون إلى جيل واحد وبلد واحد متشابهة ، خصوصًا للأجانب الرسميين ، والدنيا ليل

---

(١) متى ، باب : ٢٧ ، الآية : ٣١ .

(٢) راجع إنجيل مرقس : ١٦ ـ ٣١ ، لوقا : ٢٣ ـ ٢٦ .

وظلام ، فلم يروا سيدنا المسيح ـ عليه السلام ـ ولم يعرفوا مكانه وصنع اللّه به ما أراد ، وصدق اللّه العظيم :

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ (١).

---

(١) سورة النساء : الآية : ١٥٧ .

جاء أكثر تفاصيل هذه القصة والحلقات والملابسات والأجواء التى أحاطت بها ، مستندة إلى الوثائق المسيحية التاريخية والقانونية ، التى أمكن العثور عليها ، فى كتاب The trail of Jesus (محاكمة المسيح ـ عليه السلام ـ) لمؤلفه (London Hutchi NSON & Co.1905)Giovanni Rosadi (١٩٠٥) وكانت النتيجة المتوقَّعة أن يعترف المؤلف ببطلان عقيدة الصلب والفداء ، ولكن هنا فى الأخير ، عملت الرواسب العقائدية والتربوية عملها، فقفزت هذه العقيدة وطغت على الوثائق التاريخية والبحث العلمى والتاريخى (ص٣١٨) .

وبالعكس جاء فى دائرة المعارف البريطانية « أن شمعون كان هو المصلوب مكان المسيح ـ عليه السلام » (الجزء الثالث من دائرة المعارف البريطانية : ص ١٧٦) (الطبعة الرابعة عشر (١٤) وكذلك جاء فى دائرة معارف الأديان والأخلاق ، الجزء الرابع : ص٨٣٣ ، والحق يعلو ولا يعلى عليه .

وأول من انتبه لأهمية هذا البحث التاريخى وإثبات معجزة القرآن فى ضوئه ـ على ما نعلم ـ الباحث الكبير والأديب الجليل الشيخ عبد الماجد الدريابادى (م ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م) فى تفسيره للقرآن بالإنجليزية والأردية ـ رحمه اللّه وغفر له .

المعجزة الثالثة للقرآن الكريم أنباؤه الغيبية ونبوءاته الصادقة

إن ما ذكر فى القرآن الكريم من قصص الأنبياء السابقين وقصص الأمم والشعوب التى أرسلوا إليها يعد معجزة بمفردها ، وناحية الإعجاز فيها أنه لم يكن هناك من وسائل الاطلاع والمعرفة بها ، ولم يكن لهذه المعلومات والروايات التاريخية مصدر ولا مرجع للرسول ﷺ إلا فيض العلم الإلهى ، والوحى الربانى .

ولقد كان الرسول ﷺ أميًا ، ومعظم هذه القصص والوقائع ترد فى السور المكية حيث لم يكن بإجماع المؤرخين يهودى ولا مسيحى ، أما «ورقة بن نوفل » ـ الذى كان يقرأ الإنجيل ـ فقد توفى فى السنة الأولى بعد البعثة المحمدية ـ صلى الله على صاحبها وسلم ـ كما تصرح به الروايات الصحيحة .

ويذكر أن محمدًا ﷺ اجتمع قبل الهجرة بشخصين مسيحيين أولهما « بحيرى الراهب» ، وثانيهما « العداس» ، اجتمع بالأول منهما فى مدينة (بصرى) من مدن الشام وبالثانى فى (الطائف) من الحجاز ، ولكن اللقاء الأول لم يتجاوز بضع سويعات ، كما أن اللقاء الثانى لم يكن إلا لدقائق، وكان عمره عند اجتماعه بالأول ثلاث عشرة سنة ، فكيف يجوز لمن له أدنى مسكة من العقل أن يتجرأ على القول بأنه فى هذا العمر الباكر وفى هذا اللقاء العابر (مع حاجز اللغة) استفاد منه تلك العلوم والمعارف الجمة التى شرحها وأفاض فيها مع الصحة الدقيقة والإتقان العجيب بما

تعجز عنه حتى الصحف المقدسة نفسها .

وأما عداس فإنه لم يكن عالمًا ، وقد تأثر بالنبى الكريم ﷺ وأعجب به ، فكيف يقوم على هذا الأساس المنهار ــ رواية ودراية ــ بناء هذا القياس الغريب أن علومه ومعارفه ﷺ الغيبية التى ثبتت صحتها وقوتها ــ بعد كل التجارب والكشوف والتحقيقات ــ مقتبسة من أولئك الأغمار الذين لا يوثق بشخصيتهم ولا يعتمد عليهم فى شىء ، والتى تزيد على أصلها أشياء وحقائق لم تكن منهم أبدًا على بال .

إن السراج الذى نفد زيته وانطفأ هل يرجى منه أن يشعل سراجًا آخر؟ إنه لم يكن عند هؤلاء المسيحيين المساكين الذين يتبجح بعض السفهاء من المستشرقين بتلمذة محمد ﷺ عليهم واستفادته منهم ، من العلم ما يعتبر علمًا سليمًا يوثق به ويرجع إليه .

واضح من ذلك ــ قطعا ــ أنه لم تكن عند النبى الكريم ﷺ وسيلة للاطلاع على هذه الأخبار المغيبة ، وأنها ليست صادرة إلا من الوحى المأمون ، هذه هى الناحية البارزة من الإعجاز الذى أشار إليه القرآن مرة بعد مرة ، يقول الله ــ عز وجل ــ بعد ذكر قصة ولادة مريم ويحيى ــ عليهما السلام ــ وبعد ما سبق قصة مريم ــ عليها السلام ــ بشىء من التفصيل :

﴿ذَلكَ منْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحيه إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [(١)] .

ويقول بعد قصة طوفان نوح ــ عليه السلام ــ :

---

(١) سورة آل عمران : ٤٤ .

﴿تلْكَ منْ أَنْبَاء الْغَيْب نُوحيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ من قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١) .

ويقول فى تمهيد قصة يوسف ـ عليه السلام ـ :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٢).

ثم يقول بعد عرض هذه القصة الشائقة المفصلة :

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (٣) .

ويصرح فى هذه السورة نفسها بأن هذه القصص التى يسوقها ليست موضوعه الأساسى ، إنه يقصد بذلك العبرة ، وتصديق الكتب السابقة وتفصيلها وبيانها .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٤) .

ويرد فى موضع على الكفار افتراءهم على الرسول الكريم ﷺ بأنه يسوق هذه الوقائع من مذكراته أو نسخته التى استنسخها من قديم ، وتقرأ عليه يوميًا ثم يأتى فيحدث بها الناس ، ثم يذكر مصدره الصحيح القوى المأمون .

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي

(١) سورة هود : ٤٩ .

(٢) سورة يوسف : ٣ .

(٣) سورة يوسف : ١٠٢ .

(٤) سورة يوسف : ١١١ .

﴿يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [١] .

كما فند فى هذه السورة نفسها فرية الكفار بأنه اختلقه بمساعدة أناس من آخرين ومؤامرة كتاب بارعين :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ [٢] .

ويبين القرآن الكريم فى سورة القصص أن الرسول الكريم ﷺ لم يكن موجودًا وقت هذه الوقائع والحوادث ، ولم يكن عنده علم ولا وسيلة إليه ، إنما مصدر هذه الأخبار هو الوحى الذى أوحى ربه إليه .

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ . وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٣] .

وقد ذكر فى سورة العنكبوت عدم درايته لتلاوة الكتاب ، وأميته ، وأنه بعيد عن بيئة العلم والكتاب ، لا يعرف أسباب العلم ووسائله وأدواته ، فهل يبقى بعد ذلك من ريب فى مصدر علمه المعجز للمرتابين المبطلين .

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[٤] .

---

(١) سورة الفرقان : ٥، ٦ .
(٢) سورة الفرقان : ٤ .
(٣) سورة القصص : ٤٤ ــ ٤٦ .
(٤) سورة العنكبوت : ٤٨ .

دراسة مقارنة بين القرآن الحكيم
والصحف السماوية السابقة

إن الناس الذين كانوا يعتقدون فى عصر البعثة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ والذين لا يزالون يعتقدون بعد ذلك العصر أو يتظاهرون باعتقاده أن علوم القرآن الكريم ومعارفه مقتبسة من صحف التوراة والأناجيل ، إنهم ليسوا إلا جاهلين بالتوراة والإنجيل أنفسهما ، إن القرآن والتوراة والإنجيل لا تزال توجد على وجه الأرض ، وصحف التوراة والإنجيل ـ حسب عقيدة اليهود والنصارى ـ محفوظة منقولة معتمدة ، وليس من العسير اليوم أن نوازن بين القرآن الكريم وبين هذه الصحف بل هو أيسر مما كان عليه أمس ، ونستطيع أن ننقد فى ضوء هذه الموازنة دعوى حفظ هذه الصحف وصحتها نقدًا علميًا .

تفيدنا دراسة تلك القصص للأنبياء والمرسلين التى وردت فى القرآن والصحف السابقة أن أى قصة منها فى أحدهما ليست مقتبسة من الآخر، لا شك أن بعض أجزاء الحوادث أو جزئيات القصص تشترك وتتفق فى كلا المصدرين مما يدل على أن مصدرهما الأصيل الحقيقى مصدر واحد ، وهو الوحى .

ولكن يتضح من الدراسة البصيرة فيها أنه إن حفظ شىء منها فقد ضيعت أشياء وفقدت حلقات ، ولم تحفظ من عبث الأيدى وتدخل البشر، فتجد الفرق واضحًا جليًا فى أساليب هذه الصحف ومراتب أهمية المحتويات وخطورتها وأسسها فيها .

فالأسلوبان والمنهجان متفرقان كل الافتراق ، تترأى فى أحدهما ـ

وهو أسلوب القرآن الحكيم ـ عظمة الكتاب الإلهى وجلاله وتأثيره ، وأبديته ، ويلمع منه نور الوحى وسناه ، وتفيد دراسته لأول وهلة أن موضوعه ليس موضوعًا تاريخيًا ولا سردًا للأحداث والوقائع ، إنما موضوعه الهدى والعبرة والعظة .

إن تحديد السنين والإحصاءات وعدد الأشخاص وجميع تلك الجزئيات والتفصيلات التى تتصل بموضوع التاريخ وكتب الأنساب حذفت منه فى جمال وتوازن وإتقان .

واختيرت من القصص تلك الحلقات الخاصة التى تبقى عبرة وموعظة على مر السنين ، بقول اللّه ـ عز وجل ـ :

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِى الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١) .

هذه هى الروح الدعوية الإصلاحية والسمة الربانية التى تجدها سارية فى جميع قصص الأنبياء والمرسلين فى القرآن الكريم ، إنها إحدى خصائص الكلام الإلهى ، ودليل إعجازه .

والرسول كذلك يحمل ظل هذه الخصيصة فى كلامه ، فهو يعرض عن البحوث والتفاصيل التاريخية التى لا تجدى نفعا فى الدعوة ولا تأثير لها على أخلاق الناس وعقائدهم ،إنه يتعرض لتلك الأمور التى تكفل بنجاة الناس وسعادتهم وهدايتهم ، لقد أراد فرعون أن يربك موسى فى مبحث تاريخى لا طائل فيه ولكن موسى أغلق عليه باب المناقشة والبحث بطريقة رائعة جميلة ، مع التمسك بدعوته وإظهار رسالته، قال فرعون :

﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ﴾(٢) .

---

(١) سورة يوسف : ١١١ (٢) سورة طه : ٥١ .

وأجاب موسى ــ عليه السلام ــ :

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى ﴾[1] .

هذا فى القرآن ، وبإزائه التوراة الموجودة ، تقرأ فيها كتاب «السلاطين» وكتاب «التواريخ» و «سفر التكوين» فتجد الصبغة البحتة ، من كثرة السنين ، وأعداد الأشخاص والقبائل ، والتفاصيل الطويلة عن العمارات والبنيان ، ولكنك تؤنس فى تضاعيف ذلك أحيانًا قليلة شعاعًا من وحى ، ويشهد قلبك أن هذا من ترجمة كلام اللّه العليم الحكيم .

(١) سورة طه : ٥٢ .

قصة سيدنا يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ في القرآن والتوراة

نختار ــ فى ما يلى ــ قصة سيدنا يوسف ــ عليه السلام ــ كمثال لشرح الفارق بين القرآن الكريم والتوراة ، وقد جاءت هى مفصلة فى كلا المصدرين .

لقد ذكرت فى التوراة جزئيات كثيرة من القصة زائدة على القرآن الكريم ، ولكن أكثرها مما فيه تعيين لأسماء الأشخاص ، وتفصيل لروايات تاريخية ، فقد ذكرت فى (الباب ــ ٣) قصة ليهوده لا يقرأها إنسان كريم إلا أطرق رأسه حياء وخجلا ، وليست هى مما تليق بأسرة النبى يعقوب ــ عليه السلام ــ كما ذكرت فيها أشياء لا تناسب مقام يوسف ولا تليق بنبوته (انظر : ب/ ٤٢) .

أما القرآن الكريم فقد ذكرت فيه بعض الجزئيات المهمة للأحداث خلت عنها التوراة وكان من المهم للدعوة والرسالة أن تذكر .

١ ــ أن موعظة سيدنا يوسف ــ عليه السلام ــ البليغة المؤثرة فى تمهيده لتعبير رؤيا الرجلين الأسيرين [١] التى هى آية فى الخطابة النبوية الحكيمة والدعوة المؤثرة والحكمة البليغة والتى يتجلى فيها جمال سيدنا يوسف المعنوى وبلاغته الرائعة ، حذفت أساسًا من التوراة .

٢ ــ وأن القرآن يذكر أن عزيز مصر لما رأى ما يراه النائم وسمع

---

(١) اقرأ الآيات : ٣٦ ــ ٤١ من سورة يوسف .

تأويل يوسف له ، أحب لقاءه وأرسل إليه رسوله ليأتى به ، ولكن يوسف لم يستعجل ولم يتهور فى الخروج من السجن ، بل رأى من اللازم أن يحقق الحادث الذى اتهم به وزج لسببه فى السجن قبل أن يسرح عنه حتى تعرف عنه براءته وعفافه كما عرف عنه اتهامه ويشيع فى الناس ، وألا يظن به قبول منة السلطان وأن إطلاق السراح عنه ، حسنة من السلطان إليه ، بل إنما هو نتيجة براءته وعفافه وطهره ، إن هذه الجزئيات المهمة التى تليق ـ بحق ـ بنبوة سيدنا يوسف وغيرته وعزة نفسه، وذكائه وفراسته ، لم تذكر فى التوراة رأسا .

والذى جاء فى التوراة بهذا الصدد هو ما يلى :

﴿ [٣٨] ـ فأعجب فرعون وغلمانه جميعهم هذا الرأى . [٣٩] ـ وقال لهم فرعون هل نجد رجلا مثل هذا فيه روح اللّه . وقال ليوسف أن قد أطلعك اللّه على هذا كله فليس حكيم ولا فهيم مثلك . [٤٠] ـ فأنت تكون على بيتى . وشعبى بأسره يطيع ما يأمر به فوك غير . [٤١] ـ إننى أنا أعظم منك بالكرسى فقط . [٣٥] (١) .

وإن القرآن يقول :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيم﴾(٢) .

ولما اعترفت تلك المرأة المتجنية عليه التى أدخل بسبب اتهامها فى السجن ببرائته وحصحص لها الحق ، باح يوسف بسبب تأخيره فى تلبية دعوة الملك ومطالبته بهذا التحقيق الذى كان لابد منه لإثبات عصمته وطهارة ذيله :

---

(١) التوراة : سفر التكوين الإصحاح : ٤١ ، الآيات : ٣٨ ـ ٤١ .

(٢) سورة يوسف : ٥٠ .

﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِين ﴾[1] .

ثم برأ نفسه فى الفخر والمباهاة وقال فى إنابة نبوية وتواضع كريم :

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2] .

إن هذا لكلام النبوة ساطعًا تتجلى فيه سيرة يوسف وطبيعته وسكينته، ولا يوجد لهذه القطعة المؤثرة الخطيرة فى التوراة من عين ولا أثر .

٣ ـ أن حديث يعقوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذى نقلته التوراة ليست عليه تلك المسحة النبوية وذلك النور العلوى الذى يتلألأ فى القرآن، وازن بين سفر التكوين من التوراة ، وسورة يوسف من القرآن، تجده فى القرآن عبدًا صالحًا متوكلاً على اللّه ، يرى فى كل مكان وفى كل حادث يد اللّه تتصرف ، وقدرته تتجلى ولا ينسى اللّه أبدًا فى كل ما يتحدث به ، ويكبره ويعظمه ويرجوه ، أما فى التوراة فتجده رجلا حزينًا له أبناء وقد عركته التجارب وحنكته وانتهى ، كما أنك لا تجد فى التوراة ذكرا لرجوع إخوة يوسف بعد حبسه أخاه «بنيامين» إلى أبيهم يعقوب ـ عليه السلام ـ وحديثه الشجى الحزين الذى يتجلى فيه توكله على اللّه واعتماده عليه ، كل ذلك محذوف ساقط منه [3] .

٤ ـ يذكر القرآن الكريم أن يوسف ـ عليه السلام ـ لما اجتمع فى مصر بأبيه المهجور الكئيب وإخوته المخلفين المساكين ، امتلأ قلبه حمدًا

---

(١) سورة يوسف : ٥٢ .   (٢) سورة يوسف : ٥٣ .

(٣) انظر : سفر التكوين فقرة : ٤٤، ٤٥ .

لله وشكرًا على آلائه ولمعت فى زينات الملك وعز الجاه والسلطان أنوار النبوة والصلاح الذى ورثه عن آبائه الميامين ، وأشرقت فيه العبودية الخالصة فظل يشكر الله ــ عز وجل ــ ويدعوه :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى من تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّى فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١).

هذا المشهد المؤثر الرائع ، والدعاء الخاشع المنيب تسكت عنهما التوراة وتمر بهما مر الكرام(٢) .

---

(١) سورة يوسف : ١٠١ .

(٢) انظر : سفر التكوين ،ب/ ٤٧ .

سيرة الأنبياء كما تصورها التوراة والقرآن

من الفوارق الأساسية الكبيرة بين القرآن وصحف العهد القديم أن القرآن يعرف سير الأنبياء طاهرة بريئة نزيهة تليق بمنصبهم ومكانتهم ، بل إنه يدحض كل الاتهامات والادعاءات الباطلة المزورة التى نالت القبول فى أعدائهم أو أتباعهم السفهاء الجاهلين .

أما صحف العهد القديم فإنها تشتمل على روايات ووقائع عن الأنبياء يتندى لها جبين الحياء ويحمر لها وجه الأدب ، إنهم اتهموا فيها تارة بالكفر وتارة بالفسق ، والعياذ بالله، فقد اتهم نوح ـ عليه السلام ـ فى سفر التكوين ، الباب / ٩ ، ولوط ـ عليه السلام ـ فى سفر التكوين، الباب/ ١٩ ، وهارون ـ عليه السلام ـ فى كتاب الخروج ، الباب / ٣٢، وسليمان ـ عليه السلام ـ فى كتاب السلاطين،الباب/ ١١، بالكفر والشرك ، والفسق والفجور ، تعالى الله عن ذلك وتنزهت رسله أنى يؤفكون .

هذا فى العهد القديم ، أما القرآن فإنه يصف نوحًا بالرسول الأمين[١] ، ﴿ سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾[٢] .

ويقول عن النبى لوط ـ عليه السلام ـ :

﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ

(١) انظر سورة الشعراء ، الآيات : ٢ ـ ٦ .

(٢) سورة الصافات : ٧٩ .

كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ . وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(١) .

والتهمة الصريحة بعبادة العجل التى ألصقت فى التوراة بالنبى هارون ــ عليه السلام ــ تأتى فيها بهذا النص بعينه :

« فقال لهم هارون انزعوا أقرطة الذهب التى فى آذانكم وأبنائكم وبناتكم وأتونى بها ، فنزع الشعب الأقرطة التى فى آذانهم وأتوا بها إلى هارون ، فأخذها منهم وصيرها عجلاً سبيكًا ، وقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل الذين أصعروك من أرض مصر ، فلما نظر هارون ذلك بنى مذبحا أمامه ونادى وقال : غدا عيد للرب »(٢) .

ولكن القرآن يفند هذه التهمة الكاذبة ، ويعلن بالعكس من ذلك دعوته إلى التوحيد الصريح :

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ (٣) .

وتقول التوراة عن النبى سليمان ــ عليه السلام ــ :

« فلما كان عند كبر سليمان ، أغوت نساؤه قلبه إلى آلهة أخرى ولم يكن قلبه سليما للّه ربه مثل قلب داؤد أبيه ، وتبع سليمان «عسترون» إله الصيد « ابنين» و «ملكوم» صنم بنى عمون ، وارتكب سليمان القبح أمام الرب ولم يتم أن يتبع الرب مثل داؤد أبيه » .

ثم تضيف التوراة :

---

(١) سورة الأنبياء : ٧٤، ٧٥ .

(٢) سفر الخروج ، إصحاح : ٣٢ .

(٣) سورة طه : ٩٠ .

« فغضب الرب على سليمان حيث مال قلبه عن الرب إله إسرائيل الذى ظهر له مرتين ، ونهاه عن هذا الكلام أن لا يتبع آلهة الغرباء ولم يحفظ ما أمره به الرب » [١].

ويقول القرآن الكريم فى سورة «ص» عن إخلاصه وعبوديته ، وقربه ومنزلته عند الله ـ عز وجل ـ :

﴿ووَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [٢].

ثم يقول بعد سطور :

﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾[٣].

كذلك فند القرآن الكريم تلك الاتهامات التى رمى بها اليهود سيدنا المسيح ـ عليه السلام ـ وأمه مريم العذراء البتول ـ عليها السلام ـ تفنيدًا قويًا وصور لنا المسيح رسولاً مباركًا وجيهًا كريمًا :

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[٤] .

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[٥] .

---

(١) الكتاب المقدس سفر السلاطين ، الباب: ١١ الآيات من ٤ إلى ١١ (طبع British And Foreign Bible Society لاهور باكستان) .

(٢) سورة ص : ٣٠ .

(٣) سورة ص : ٤٠ .

(٤) سورة آل عمران : ٤٥، ٤٦ .

(٥) سورة مريم : ٣٠ ـ ٣٣ .

هذا هو الفارق الأساسى بين هذه المحتويات والقصص المشتركة فى القرآن الكريم والصحف السابقة التى هى بأيدينا والتى يعتقد أصحابها أنها محفوظة غير محرفة .

أما المحتويات والتعليمات الخالدة التى ضمها القرآن الكريم بين دفتيه وانفرد بها عن الصحف القديمة فهى تشكل جانبًا آخر عظيمًا من إعجازه وجماله وشموله .

وبعد كل ما تقدم وما ذكرناه وما لم نذكره هل يكون الادعاء بأن القرآن الكريم اقتبس هذه المعلومات القديمة عن تلك الصحف إلا جهلا بالقرآن الكريم فى جانب ودليلا واضحًا على جهل فاضح بهذه الصحف نفسها ، إن ما احتوى عليه القرآن مقتبس من علم اللّه ، بل هو فيض من علم اللّه ، وليس من وسيلة للاطلاع عليه ولا من مصدر يصدر منه به إلا وحى اللّه .

ولذلك فهو حق مطابق للواقع ، منزه برىء من كل ريب واختلاط وقياس ، إنه جاء ليفضح تحريفات الصحف السابقة ، وافتراءات اليهود واتهاماتهم ضد الأنبياء المعصومين ، وليصدق أصل ما أنزل إليهم من اللّه وليكون مهيمنًا عليه ملاحظًا رقيبًا .

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (١) .

---

(١) سورة المائدة : ٤٨ .

تنبيه القرآن الكريم
على تحريفات الصحف السابقة
والفروق الدقيقة بين عقائد الديانات السابقة
والفرق الدينية

إن من الإعجاز القرآنى المدهش أنه تناول بيان الخلافات العقائدية والتصورية بين شتى الفرق والطوائف من اليهود والمسيحيين ، فى صحة دقيقة وإتقان وضبط عجيبين ، وراعى الفروق والأشياء الدقيقة فى عرض آرائهم وخلافاتهم الدينية ، وإن ما ذكر القرآن الكريم من فروق بين عقائدهم ووجوه خلافاتهم وافتراقاتهم تصدقه ــ حرفًا بحرف ــ الدراسة الواسعة العميقة لثروتهم الدينية .

وكلما يتسع العلم بدياناتهم وتتيسر وسائل وإمكانيات دراسة كتبهم ــ التى تنتشر الآن وتصدر بكثرة ــ دراسة عميقة يظهر للناس صدق بيانات القرآن ــ وهو الكتاب المحكم ــ ودقتها وتنكشف حقائق ومعلومات خطيرة ويتجلى لكل ذى عينين أن القرآن الكريم لم يستخدم كلمة واحدة فى حقهم إلا وهى من الضرورة بمكان ، ولولاها لخفيت علينا معان ، وأن تنويعه للتعبير والبيان عندما يذكرهم ليس إلا لغرض مقصود كبير .

كذلك ما جاء فى القرآن الكريم من تأكيد على شىء أو تفنيد لشىء حول الأشخاص أو الحوادث والوقائع فليس ذلك إلا لمواقف اليهود والمسيحيين منهم : إيجابية مغالية أو سلبية منافية ، ودحضا لاتهاماتهم

وحطا على رواياتهم وردا على زيغهم وانحرافهم ، ونكتفى هنا بعرض ثلاثة أمثلة من ذلك :

١ ــ لقد نفى القرآن الكريم تهمة الكفر عن النبى سليمان ــ عليه السلام ــ وبرأ ساحته عنه قائلاً :

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾[1] .

وبديهى أن يتعجب كل إنسان عنده شيء من سلامة الفكر ، وليست عنده خلفيات سابقة فى هذا الموضوع ، وأن يقول : ما الداعى إلى تبرئة ساحة النبى سليمان من الكفر وهو نبى معصوم جليل ؟ ، والنبوة لا تقتضى الإيمان فحسب بل النبى الحق يكون إمام المؤمنين وقائدهم ، ومرجعهم وقدوتهم ، إنه مشعل نور ومنارة هدى ومصدر بر وإيمان .

ولكن تتضح أهمية هذا التصريح القرآنى ببراءة «سليمان» وعصمته وضرورته وقيمة هذا الرد والتفنيد ودوره عندما ندرس تصريحات العهد القديم عن النبى سليمان ــ والتى أسلفنا بعض نماذجها ــ وندرس تلك الروايات التى راجت واشتهرت فى اليهود عن شرك سليمان ووثنيته وتعليمه السحر وغير ذلك ، ومعاذ الله ، وعندما نرجع إلى الكتابات اليهودية ، ودائرة المعارف اليهودية (Jewish Encyclopaedia) ودائرة معارف الديانات والأخلاق (Encyclopaedia of Religion and Ethics) وغيرها من المراجع التى تبين نظرية اليهود عن النبى سليمان وما لها من خلفيات تاريخية .

لقد كانت دنيا اليهودية والمسيحية ــ التى لا تعترف بالقرآن مصدراً للعقائد والتعليمات الدينية بل تؤمن بالصحف المقدسة ــ متشبثة بهذه

---

(١) سورة البقرة : ١٠٢ .

القصص والحكايات ، ولكنها اضطرت ــ أخيرًا ــ إلى الاعتراف بتلك الحقيقة الواضحة التى كان أعلنها النبى الأمى ــ عليه أفضل الصلاة والتسليم ــ فى وادى مكة بعيدًا عن مراكز العلم والمدنية ، قبل أربعة عشر قرنًا من الزمن،فقد جاء التصريح فى مقال دائرة المعارف البريطانية ــ التى تعتبر خلاصة الجهد والتحقيق البريطانى ــ عن النبى سليمان ــ عليه السلام ــ :

« لقد كان سليمان موحدًا »[١] .

وجاء التصريح فى « دائرة المعارف للعهد القديم والجديد » (Encyclopaedia - Biblica)التى هى نتيجة جهود الفضلاء المسيحيين المختصين فى علوم العهد القديم وبحوثهم التاريخية ، أن الفقرات التى جاءت فى العهد القديم تصف سليمان ــ عليه السلام ــ بالكفر والشرك (والعياذ باللّه) كلها ملحقة موسوسة ، وجاء فيها تفنيد تلك الأسطورة المروية فى العهد القديم التى تقول بأن سليمان كان يعبد بعض الأصنام بتأثير زوجاته [٢] ، « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » .

٢ ــ ذكر فى القرآن الكريم أن اللّه ــ سبحانه وتقدس ــ لم يمسه شىء من الملل والإعياء والتعب بعد أن خلق السماوات وما بينهما من عوالم وأكوان :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن

(١) دائرة المعارف البريطانية : ج٢ ، ص ٩٥٢ ، الطبعة الرابعة .

(٢) استفدنا فى ذلك من التفسير الماجدى (تفسير القرآن) للعلامة الأستاذ عبد الماجد الدريابادى المرحوم ، انظر تفسيراته « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » من سورة البقرة فيه .

لُغُوب﴾[1].

ويعجب كل من رزق سلامة الفطرة ويعرف صفات اللّه وأنه القوى العزيز القادر القاهر وأنه « لا يؤوده حفظهما » وأنه « لا تأخذه سنة ولا نوم » من هذا النفى ، ويقول فى نفسه ما الذى دعا إلى تصريحه بأنه لم يتعب ولم يمسه شىء من لغوب ؟ ، ولكن ما يقع بصر الدارس للعهد القديم على هذا النص المذكور فيه :

« خلق اللّه السماوات والأرض فى ستة أيام ، فاستراح فى اليوم السابع » [2].

وجاء فى طبعة الملك جيمس الإنجليزية الموثقة للعهد القديم هذا النص التالى[3] :

And He Rested On Seventh Day From All His Work Which He Had Made.

عند ما يقع بصر الدارس على هذا التصريح فى العهد القديم والذى لا يزال ينقله الأحبار والرهبان عند ذلك تتضح له أهمية قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُغُوب﴾ وضرورته ومعنويته ومغزاه ، وينكشف ما يقصد بهذا الرد والنفى المبين من فضح للجهل والجرأة على اللّه ، وتفنيد لسوء فهم أو

---

(١) سورة ق : ٣٨ .   (٢) سفر التكوين : ٢،٣ .

(٣) يبدو أنه تفطن العلماء المسيحيون والمترجمون للتوراة أخيراً لخطئهم وخطورة ما ينسبونه إلى اللّه من ضعف فغيروا فى التعبير عند إعادة نظرهم فى التراجم حسب ما هى عادتهم المعروفة فى التاريخ من تغيير وتعديل فى نصوص التوراة ، فجاء فى طبعةBritish and Foreign Biblesociety للعهد القديم لعام ١٩٥٨م هذه العبارة التالية : فرغ من أعماله التى كان يقوم بها فى اليوم السابع ، انظر : (سفر التكوين : ٢٠٢) .

افتراء وكذب على اللّه ــ تعالى ــ الأمر الذى تناقله المتزعمون والمدعون للتحقيق والبحث آلافًا من السنين ، ولعلهم تذكارا لذلك اليوم الذى استراح اللّه فيه ــ بزعمهم الباطل ــ يحتفلون بيوم السبت ويمسكون فيه عن العمل .

٣ ــ لقد تناول القرآن الكريم بيان معتقدات المسيحيين حول المسيح ــ عليه السلام ــ بثلاثة أساليب :

[١] ــ ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾(١) .

[٢] ــ ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾(٢) .

[٣] ــ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾(٣) .

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾(٤) .

﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾(٥) .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ﴾ (٦) .

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾(٧) .

هل ترى هذه الفروق بين التعابير القرآنية ، تنويعًا للأسلوب ، ومادة للبلاغة وتصريفًا للقول ، وأنها كلها متحدة المعنى مترادفة فى المقصود ؟ كلا! إنها كما يتضح من دراسة تاريخ الفرق المسيحية وتفاصيل عقائدها ــ

---

(١) سورة المائدة : ١٧ .
(٢) سورة التوبة : ٣٠ .
(٣) سورة البقرة : ١١٦ .
(٤) سورة مريم : ٨٨ , ٨٩ .
(٥) سورة مريم : ٩٢ .
(٦) سورة الإسراء : ١١١ .
(٧) سورة الكهف : ٤ .

التى أصبحت الآن فى النور ــ فروق دقيقة مقصودة قصداً لأهميتها وإفادتها لحقائق مرعية .

ويخضع الدارس للإعجاز القرآنى العلمى الدقيق عندما يطلع على أنه كان هناك فرقة مسيحية تدعى« Adoptionist » (أى القائلة بالتبنى) التى لم تكن تعتقد أن المسيح هو ابن اللّه صلبا وأنه ولده (والعياذ باللّه) بل كانت تعتقد بأن اللّه ــ تعالى ــ تبناه ، لقد كشف النبى الأمى العربى، بعيداً فى الحجاز قبل أربعة عشر قرنًا من الزمن ، الحجاب عن هذه الحقيقة وراعى هذا الفرق فى بيان عقائد فرق المسيحيين التى لم يكن يعرفه المثقفون المسيحيون بهذه الدقة المضبوطة .

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ﴾[1] .

يقول الأستاذ « عبد الماجد الدريابادى» :

« كانت هناك طائفة كبيرة من المسيحيين تدعى « Adoptionist» (الاتحادية أو القائلة بالتبنى) وينبغى أن يكون التعبير عن عقيدتهم الأساسية بعقيدة التبنى أو «الاتحادية» وخلاصة عقيدتهم هذه ، هى « أن الأقنوم الأول أى اللّه ــ جل جلاله ــ تبناه واتخذه ولدا وأشركه فى ألوهيته ، فهو شريكه فى ألوهيته وملكه وجميع صفاته .

ونجد بعض الشواهد على أسباب وعوامل هذه العقيدة فى التاريخ عام ١٨٥م ، ثم حكم البابا فى رومه فى القرن الثامن على هذه العقيدة ، بالإلحاد والزندقة ، فالإشارة فى الآية الكريمة واضحة إلى هذا الفرع من طوائف المسيحيين »[2].

---

(١) سورة البقرة : ١١٦ .

(٢) التفسير الماجدى (تفسير القرآن : ج ١ ، ص ٢٠٤) .

إن هذه الأمور الدقيقة الملحوظة ، وهذا الإعجاز فى الإحاطة بفروق عقائدهم وخلافاتهم ليس فى وسع أى إنسان من البشر ، لا يعرف عن معتقدات اليهود والمسيحيين وخلافاتهم الداخلية الدقيقة ، إنه كلام علام الغيوب الذى « لا يطلع على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول » وهو فوق الريبة والشك والظنون ، برىء من نقص البشر وقصوره وضعفه .

﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (١) .

(١) سورة فصلت : ٤١ ، ٤٢ .

إحدى نبوءات القرآن العظيمة
(نبوءة غلبة الروم)

أهمية النبوءة وغرابتها وأسلوب عرضها :

إن النبوءات التى تضمنها القرآن الكريم تشكل إحدى نواحى الإعجاز القرآنى البارزة ، والمعجزة هى تلك الخارقة للعادة التى يظهرها الله ـ عز وجل ـ لقدرته تصديقًا لنبيه وتأييدًا ، ويعجز العقل البشرى عن تعليلها الظاهر ، وتأويلها المعتاد .

إن الأوضاع التى أعلن فيها القرآن هذه النبوءات والأوضاع التى تحققت فيها ، كل ذلك معجزة من دون شك ، وإن هذه النبوءات تشتمل على ناحيتين من الإعجاز .

أولاهما : العلم بتلك الحوادث والوقائع الخطيرة التى لا تدرك بالقياس ولا بالحنكة والتجربة فى الظروف التى لا تساعد على النبوءة بمثل ذلك إطلاقًا .

والثانية : هى تحقيقها ووقوعها حسب إعلان النبوءة وحسب ذلك العلم تحققا يشهده الناس .

إن أوضح وأقوى وأصرح هذه النبوءات فى القرآن الكريم هو نبوءته بغلبة الروم على الفرس بعد هزيمتهم النكراء أمامهم ، اقرأ الآيات التالية :

﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ

سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾[1] .

يدل سياق هذه النبوءة وأسلوبها أنها أعلنت معجزة للقرآن الكريم وللرسول الكريم ﷺ وتصديقا له ، لأنها حادثة غريبة غير عادية ، ولأن انتصار الروم كان بعد هزيمة ساحقة نكراء ، ولعله لذلك ذكرت هزيمتهم فى الآية الكريمة مرتين .

والناحية الثانية فى غرابة هذا الحادث وغرابة النبوءة أن هذا الانتصار سوف يتحقق فى حدود تسعة أعوام ، المدة التى لا تكفى لنهضة شعب منحط متدهور ، ومملكة متضعضعة مدمرة ، ولأن ينقلب المفتوحون المنهزمون فاتحين غالبين .

وقد أكد فى الآية الكريمة أن هذه الحادثة ستقع على طريق خرق العادة ضد كل القرائن والدلالات الظاهرة وكل القياسات والتقديرات البشرية ، وأنها تكون صنع الله الغالب .

﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ .

ففى الآية إشارة إلى حقيقة أن الله هو الملك المتصرف ، بيده الأمر ، ينزع الملك ممن يشاء ويؤتيه من يشاء ، وأنه فى لمحة البصر يحول الغالب مغلوبًا ، ويصير الميت حيًا ، فليس على علمه قيد ولا حد ولا حاجة له إلى انتظار الظروف الملائمة والأوضاع المساعدة ، فهو المتصرف وحده يتصرف كما يشاء فى كل حين وآن :

---

(١) سورة الروم : ١ ـ ٧ .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[١] .

ثم صرح بأن ذلك يقع بأمر اللّه وفضله وأن المؤمنين لكونهم أقرب إلى الروميين ـ أصحاب الكتاب ـ بالنسبة إلى الإيرانيين ـ عباد النار ـ وبعد ما لقوا من سخرية المشركين وغيرهم واستهزائهم ما لقوا ، سيفرحون ويسرون أكثر من حزنهم يوم انهزام الروم .

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ .

ويمكن أن تكون هذه القطعة من الآية تحمل لهم بشرى إلى ذلك الفتح العظيم الحاسم «فتح بدر» الذى تحقق فى ساحة بدر فى اليوم نفسه الذى تحقق فيه وعد اللّه بغلب الروم[٢] .

وقد يخطر على بال مسلم لماذا ينصر اللّه المسيحيين الروميين ــ وهم من هم فى شركهم وضلالهم رغم أنهم أهل كتاب ــ فقد صرح اللّه تعالى بأنه **﴿ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ﴾** و **﴿لا يسأل عما يفعل﴾** فقد اقتضت حكمته نصر المجوس عليهم ثم اقتضت انتصار الروم عليهم **﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾** [٣] .

ثم ذكر اللّه ــ عز وجل ــ هنا من صفاته العليا ما تشير إلى تحقق هذه النبوءة الخارقة للعادة وتكون دليلا على إمكانها ووقوعها ، فقال :

---

(١) سورة آل عمران : ٢٦، ٢٧ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير رواية ابن عباس ــ رضى اللّه عنهما ــ بصدد تفسير الآية (سورة الروم ، الآية : ١ ــ ٧) .

(٣) سورة البقرة : ٢٥١ .

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

وقد تجلت هاتان الصفتان (عزة اللّه ورحمته) فى هذا الحادث، فظهرت عزة اللّه وغلبه وقهره ضد المجوس الذين كانوا فى سكرة الانتصار ونشوة الفتح ،وظهرت رحمته ولطفه فى حق الروميين الذين كانت قد تحطمت قلوبهم وتزلزل كيانهم ، وكادت مملكتهم تلفظ أنفاسها الأخيرة ، فكان منهم خمسون ألفًا من الأسرى فى أيدى المجوس ، يسومونهم الذل والإهانة وسوء العذاب كما كانت هى بشرى سارة للمسلمين الذين كانوا قد حزنوا ــ بطبيعة الحال ــ على هزيمة الروم بالنسبة إلى المجوس، وكانت إشارة إلى الغلبة والانتصار فى المستقبل الذى أكده اللّه ــ عز وجل ــ وأردفه بقوله :

﴿وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ .

ثم صرح بأن هذا الحادث خلاف التجارب اليومية والمعلومات البشرية الظاهرة ، ولذلك سيستبعده أكثر الناس ويرونه محالا أو أقرب إلى المحال وضربًا من الخيال .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ . يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[1] .

الخلفية التاريخية :

لنبحث أولا هنا عن تلك الظروف الحالكة المعاكسة التى كان الناس يرون فيها غلبة الروم وانتصارهم بعيدًا عن الفهم والإدراك وشيئًا من المستحيلات ، والذى جعل القرآن يعطيه هذه الأهمية ويقدمه علامة

---

(١) سورة الروم : ٦ ،٧ .

ودليلا على القدرة الإلهية وصدق القرآن وإلهية مصدره .

إن استقلال شعب مستعبد ، ونهضة شعب خامل محطم ، وانتصار مملكة على أخرى ، ليس من الوقائع النادرة أو الاستثناءات الخاصة فى التاريخ ، فلماذا أعار القرآن الكريم لهذا الحادث هذه الخطورة والأهمية ؟

إن هذا الاستفهام يدعونا إلى دراسة تلك البيئة والأوضاع الخاصة التى أصبح فيها هذا الحادث يكتسب صفة المعجزة الخارقة للعادة ، هل كان الروميون من الهزيمة والانكسار والتحطيم والهلاك ، وهل كان الفرس من الانتصار العظيم ، وإحكام قواعد الدولة فى المناطق والولايات الرومية بحيث كان انقلاب الوضع الحربى وتغير الظروف وتحول المفتوح المكسور فاتحًا غالبًا ، يعد حادثة غريبة استثنائية ، وكانت يد اللّه فيها تتصرف من وراء الستار على غير المعهود والمعتاد ، ولم يكن للحادث تفسير عقلى ومنطقى يطمئن إليه ؟ سنرد على هذا الاستفهام ببيانات المؤرخين الأوربيين ، ويكون اعتمادنا فيه على كتاب تاريخ « انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومية » (Decline And Fall of The Roman Empire) للمؤرخ الأديب الإنجليزى المعروف إيدورد جبون (Edward Gibbon).

دوافع الغزو الإيرانى وأسبابه :

لقد لجأ كسرى أبرويز[١] « الذى هو حفيد نوشيروان وابن هرمز» بعد فراره من بهرام جور « الذى خلع هرمز واعتلى العرش الساسانى » إلى الروم وكان ذلك عهد السلطان موريقس(Maurice) الذى استقبل ولى العهد الإيرانى بحفاوة ملوكية بالغة وتبناه[٢] ، ثم سير جيشا بقيادة الجنرال

(١) وهو الذى يدعى فى الإنجليزية بـ « Chosroesll» .

(٢) وحسب تأريخ المؤرخ المسعودى زوجه ببنته مارية .

نارشز المعروف (Narses) الذى استطاع بمساعدة الإيرانيين أن يعيد إلى خسرو عرش آبائه السالفين ، وكان ذلك عام ٥٩٠م ، وكان خسرو دائم الشكر لهذه المنة من موريقس، وكان يراه كالوالد المشفق ، وبقيت العلاقات بين الفرس والروم إلى آخر عهد موريقس ودية طيبة ، وكسبت الدولة الرومية بسبب هذه اليد عند خسرو ، منافع مادية سياسية عديدة .

وفى عام ٦٠٢م خرج فوقس(Phocas) أحد الجنرالات فى الجيش الرومى ضد السلطان ، فقتله ، وأهلك جميع أفراد أسرته بوحشية وقساوة بالغة ، وتربع على عرش القسطنطينية ، وأخبر الحاكم الجديد ملك إيران باستيلائه على العرش الرومانى والعلاقات الودية التى ستبقى كما كانت بين الدولة البيزنطية الرومية ، والدولة الإيرانية ، وبعث إلى بلاط كسرى ليليوس(Lilius) كسفير لدولته ، وقد كان هذا الرجل هو الذى حمل رأس موريقس ورؤوس أبنائه إلى فوقس ، فلما حضر السفير الرومى فى بلاط كسرى ، وعلم كسرى تفاصيل الثورة استشاط غضبًا ، وقبض على السفير وأبى أن يعترف بالحكومة الرومية الجديدة ، وأعلن فى مملكته أنه سيثأر «لأبيه» صاحب اليد البيضاء عليه ، وقد أشعلت عواطف الولاة وحكام الولايات الدينية والقومية هذا الوقود اضطرابًا وأثارت الحمية، حتى قام كسرى بحملته على الدولة الرومية عام ٦٠٣م [١].

اتساع الفتوحات الإيرانية :

لقد كان فوقس أحرق نارشز (Narses)أكبر الجنرالات الروم حيًا ، فى إحدى أسواق قسطنطينية ، ولم يكن إذ ذاك فى الجيش الرومى قائد أكثر حنكة منه وتجربة ، فقد كانت الأمهات يخوفن باسمه أولادهن فى

(١) قبل بعثه النبى الكريم ﷺ بسبعة أعوام .

أسيريا ، وقد ديست الجيوش الرومية بعد قتله بأقدام الأفيال ، وكان كسرى قد كسر من قبل القلاع والحصون الرومية على الثغور ، وعبر نهر الفرات إلى مدن الشام ، فاستولى عليها ودخل هيروبلس (Hierapolis) وشالس(Chalcis)وحلب (من مدن الشام) وأدخلها فى مملكته حتى دخل أنطاكية العاصمة الشرقية للدولة البيزنطية ، وأحكم الاستيلاء عليها.

لقد كان هذا السيل العرم للفتوحات الإيرانية دليلاً على انحطاط الدولة الرومية وسقوطها ، وعلى عدم أهلية فوقس للقيادة ، وفتح الإيرانيون بعد ذلك بدون مشقة مدينة (قيسارية) عاصمة كيبى دوشيا (Cappadocia) [١] ثم فتحوا دمشق ، والخليل شرق الأردن حتى استولوا على يروشلم ، وأحرقت كنيسة «مدفن المسيح» (حسب عقيدتهم وزعمهم) وكنائس قيلينا وقسطنطين ، الفخمة الهائلة ، ونهبت النذور والأوقاف الدينية التى جمعت فى مدة ثلاثة قرون فى يوم واحد ،ونقل «الصليب الأصلى » (Ture Cross) إلى إيران ، وقتل من المسيحيين تسعون ألف نسمة .

وتغلغل الإيرانيون بعد الشام فى مصر واستولوا عليها ، وامتدت حدود المملكة الإيرانية إلى الحبشة وطرابلس الغرب ، كما دخلت المستعمرات البيزنطية وكثير من المناطق الإفريقية فى حوزة إيران ، وعاد الفاتح الإيرانى على أثر الإسكندر المقدونى فى طريق صحراء ليبيا ،

---

(١) هى المنطقة الواقعة فى آسيا الصغرى الممتدة ٢٥٠ ميلاً طولا و ١٥٠ ميلا عرضا ، ويقع بشرقيها سلسلة جبال طوروس (Mt . Taurus) ونهر الفرات ، وفى غربها غليشيا ولائى كونيا ، وفى الشمال بندامين وفى الجنوب سلسلة جبال طوروس كذلك (دائرة المعارف البريطانية) .

واستولت قطعة من الجيش الإيرانى، من الفرات باسفورس(Bosphorus) وشالسيدن (Chalcedon)[1] واستمرت المخيمات الإيرانية العسكرية أمام القسطنطينية لعشر سنوات كاملة، ولو كانت الدولة الإيرانية تملك الأساطيل البحرية ، لأدخلت فى حوزتها جميع ولايات الدولة البيزنطية.

تربع «هرقل» على عرش الدولة البيزنطية :

فى نفس الوقت الذى كانت فيه الدولة البيزنطية تعانى من صراع الحياة والموت ، وكادت تلفظ نفسها الأخير قام هرقل (Heraclius) حاكم إفريقيا بثورة عسكرية ضد فوقس ، وقتل فوقس عام ٦١٠م ، وأخذ بزمام الدولة البيزنطية المتدهورة الساقطة ، وكان أول نبأ تلقاه فور توليه لأمور الدولة ، سقوط إنطاكية .

كان يتوقع أن تنطفئ نار الغضب والحقد فى قلب كسرى بعد قتل فوقس ، وكان من المأمول أن يتقدم كسرى بالشكر لهرقل على أنه كفاه القتال ، وأنه تكفل عنه بالقصاص من قاتل « أبيه» صاحب النعمة واليد عليه ، والمتسلط على مملكته بعد الإطاحة به ، ولكن نوايا كسرى قد تغيرت ، فاستمر فى إجراءاته التعسفية العدوانية ، ولم ينصرف عن تكميل سلسلة فتوحاته التى كان بدأها ضد فوقس .

مشاكل الدولة البيزنطية :

انهزم الروميون فى عام ٦١٦م هزيمة كاملة ، وخسروا إمبراطوريتهم العظيمة وفقدوها على أيدى الفرس ، وكانت هناك ـــ عدا هذه الخسائر

---

(١) كان موقعه فى جنوب غرب مجمع النهرين الفرات وساجر على بعد ستة عشر ميلاً على ذلك الشارع الطويل الذى كان يصل بين شمال سورية والعراق ، (دائرة المعارف البريطانية).

فى المناطق الشرقية على أيدى الغزاة الإيرانيين ــ ثورات وانقلابات فى أوربا كلها .

فكان الوحوش الآوارس (Avars) يعيشون فى أوربا من حدود المجر إلى جدران تدرس ظلمًا وفسادًا وبربرية ، كما أن دماء أولئك الأبرياء التى أريقت فى الحرب الإيطالية بسخاء لم تكن قد جفت بعد .

وقبل ذلك كانت هناك عملية إبادة للأسرى الذين قبض عليهم فى ساحة «بنسونيا » (pansonia) المقدسة ، كما استرقت النساء والولدان ، وانحصرت الدولة البيزنطية فى أسوار القسطنطينية وفى بعض المناطق من اليونان وإيطاليا وإفريقيا ، وفى مواضع عدة قرى ساحلية على الساحل الآسيوى من صور (Tyre) إلى طرابزون (Trebizond) .

وغزت عاصمة الدولة بعد سقوط مصر ، الأوبئة والأمراض والقحط، وكانت تحمل من مصر إلى القسطنطينية الحبوب والغلال ، فلما سقطت مصر ، انقطعت هذه الميزة ، وكان توزيع الحبوب والغلات فى القسطنطينية من عهد القسطنطينى ٣٠٣م توزيعًا عامًا يهدف إلى جذب الناس إلى العاصمة وإقامتهم فيها ، وقطع هذا التوزيع عام ٦١٨م لأول مرة لأجل انقطاع الاستيراد .

سيرة هرقل :

لقد أجمع المؤرخون لحياة هرقل على أنه ــ رغم هذه الوقائع الهائلة والفتوح الإيرانية المدمرة ــ كان باردًا لا تملكه عاطفة ، ولا تحركه حياة ، إنه كان يشهد بأعين رأسه سقوط الدولة البيزنطية وانتهاءها ،كما يقول عنه المؤرخ جبون :

« لقد كان هرقل فى بداية عهد ولايته ونهايته رجلا كسلان ، ضعيف

الهمة ، عبد اللذائذ والمتع ، خرافيًا ، متفرجًا ، قزما فاقد الحمية على نكبات شعبه وويلاته » .

نبوءة القرآن الكريم :

في هذه الظروف الحالكة عام ٦١٦م التى كانت الدولة البيزنطية فيها تعانى من سكرة الموت ، تنبأ القرآن الكريم وهو ينزل فى مكة المكرمة على أمى من البشر .

﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ . فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِى بِضْعِ سِنِين﴾(١) .

يقول المؤرخ المسيحى جبون :

« لقد تنبأ محمد ﷺ فى الوقت الذى كانت فيه الفتوحات الإيرانية فى عنفوانها وشدة اكتساحها ، بأن الرايات سوف تخفق بالفتح والانتصار فى بضع سنين وأنه لم يكن هناك عندما أعلنت هذه النبوءة ، شيء أبعد فى القياس وأغرب عن العقل من هذه النبوءة ، لأن الأعوام الإثنى عشر الأولى من ولاية هرقل كانت تنذر بالسقوط الوشيك والنهاية الأخيرة للدولة البيزنطية »(٢) .

لقدكان ذلك العام الخامس من بعثة النبى الكريم ﷺ وكان مشركو مكة يفرحون ويطربون على هذا الانتصار الإيرانى العظيم والهزيمة الرومية المخزية ، وكانوا يرون فتح الإيرانيين وانتصارهم ، انتصار أصدقائهم ، وفألا مبشرًا لهم إذ كانت تربط بينهما وشيجة الشرك وصلة

---

(١) سورة الروم : ٢ ـ ٤ .

(٢) تاريخ انحطاط وسقوط الدولة البيزنطية : ج٣ ، ص ٣٠٣ طبع ١٨٩٠م .

(Decline And Fall of The Roman Empire) .

الوثنية ، فلما نزلت هذه الآيات الأولى من سورة الروم ، وعلم بها الكفار والمشركون ، استبعدوها فى القياس بل رأوها ضربًا من الخيال ، واشترطوا مع المسلمين أن الروم إذا انتصروا فعلا فإنهم يعطون المسلمين عددًا من الإبل ، وإذا لم تتحقق هذه النبوءة فإن المسلمين يعطونهم إياها.

وكان أبو بكر الصديق ــ رضى اللّه عنه ــ الذى كان شريكًا فى هذا الشرط ، حدد لتحقيق النبوءة خمس سنوات ، ولكن لما علم النبى الكريم ﷺ بذلك ذكر له أن البضع متردد بين الثلاث إلى التسع ، فليحدد تسع سنين ، ففعل أبو بكر ذلك[١] .

ظهور النبوءة وتحقيقها :

أراد «هرقل» بعد أن أحيط بهذه المشاكل والنكبات ــ التى تقدمت سابقًا ــ أن يهاجر من القسطنطينية ويلجأ إلى مدينة قرطاجنة[٢] (Carthage) الآمنة المطمئنة ويتخذها مركزه وعاصمته ، وقد كانت سفنه الشراعية محملة بثروات القصر الملكى وحليه وجواهره ، مستعدة للإقلاع إذ حرضه البطريق على القتال وشجعه وشد أزره ، فجاء هرقل إلى كنيسة (St . Sophia)وحلف أن حياته وموته مع هؤلاء الذين ولاهم اللّه أمرهم .

ويقدر انهزامية الإمبراطور الرومى من أنه بعث أحد القادة الإيرانيين وعددا من المسئولين الروميين إلى كسرى إيران ، يستجدى منه العفو وإعلان حالة الأمن ، فلما حضروا لدى كسرى قال : إنها ليست بسفارة، إنه فى الواقع «هرقل» سيق إلى عرش إيران مغلوبًا لا مصفدًا ، ولا

(١) انظر جامع الترمذى ، كتاب التفسير . (٢) كانت هذه المدينة بقرب تونس حاليًا .

أعطيه الأمن حتى يتخلع عن «ربه المصلوب» ويختار عبادة الشمس .

ولكنه بعد تجارب ست سنوات رفع يده عن فتح القسطنطينية وأعطى الروميين الأمان على شروط أن يقدموا كل عام ألفًا من التالنت (Talent) الذهبى وألفًا من التالنت الفضى وألفًا من الحلل الحريرية ، وألفًا من الخيول وألفًا من الفتيات الباكرات كخراج إلى البلاط الإيرانى .

لقد كانت هذه الشروط المخزية المهينة والتى كانت كفيلة بأن تستفز مشاعر الروميين وتشعل فيهم نيران الغيرة والحمية ، والثورة ، أفادت هرقل وأحدثت فى نفسيته انقلابًا ، فأعلن حربًا دينية مقدسة (Sacred War) واستقرض للنفقات الحربية من أوقاف الكنائس ومواردها بشرط أنه سوف يردها بفوائد ربوية .

انقلاب فى هرقل :

لقد نشأت فى طبيعة هرقل الخامدة وعزائمه الكليلة وجثته الهامدة روح جديدة ، وحدث انقلاب جذرى فى حياته ، فلم يكن هو من الآن هرقل الكسلان المترف الناعم ، بل كان قائدًا فاتحًا طموحًا يقظًا متحمسًا ، ذا همة وعزيمة صارمة ، قلقًا على أوضاعه ، مضطربًا لاستعادة إمبراطوريته السليبة ، ونفخ الحياة فى شعبه الميت الخامد من جديد .

يقول المؤرخ جبون :

« كما أن ضباب الليل والصباح ينقشع بالشمس فى رابعة النهار ، كذلك تحول «آركاديوس»(١) الحور والقصور ، قائد الساحة وفارس الميدان، واستبقيت عزة هرقل وعزة الروم بطريقة رائعة جدًا »(٢) .

(١) « آركاديوس » ملك يضرب به المثل فى الترف والرخاء وقلة الأنفة .

(٢) تاريخ انحطاط وسقوط الدولة البيزنطية : ج ٧، ص ٧٦ ، طبع لندن ١٩٠٨م .

زحف هرقل وانتصاراته :

أنزل هرقل جيوشه الكثيفة فى خليج الإسكندرونة على يسار الساحل الغربى الجنوبى من آسيا الصغرى ، وأصلح قلاع المدن الساحلية ودرب الجنود الجدد تربية عسكرية منظمة ، ودعا شعبه الرومى بمناسبة إزاحته الستار عن تمثال المسيح ــ عليه السلام ــ إلى الانتقام والثأر من عباد النار ، وألقى خطبة حماسية مؤثرة ، نفخ بها روح العداوة والانتقام ، وبعد أن فتح هرقل مدينة سليشيا (Cilcia) توجه إلى كيبى دوشيا (Cappadocia) وعبر جبال آرمينيا والبحر الأسود حتى تغلغل فى قلب إيران ، ومشى من القسطنطينية بخمسمائة من صفوة الجنود إلى طرابزون ، وفتح مدينة طوروس ، ومناطق جندزاطا وموغان ، وكسر المسيحيون المعابد المجوسية ، وأحرقوا تماثيل كسرى ، وانتهكوا حرمة « مولد زرادشت» ، ثأرا لكنيسة «مدفن المسيح» واستردوا خمسين ألفًا من الأسرى المسيحيين .

ودخل هرقل فى «ساباط» ثم زحف إلى مدن قزوين وأصفهان ، وتعرضت الدولة الإيرانية لخطر الزوال ، وطلبت الجيوش الإيرانية من وادى النيل وباسفورس ولكن هرقل هزم هذه الجيوش الحاشدة ، شر هزيمة ، وبعد مروره بجبال كردستان عبر هرقل نهر دجلة ، ودخل «ساباط» بعد حرب دموية ، ثم وقعت معركة حاسمة فى ساحة نينوا ، دخل بعد الانتصار فيها «دستجرد» ووصل إلى ما يقرب من المدائن حوالى بضعة أميال ، ثم كر فاتحًا منتصرًا إلى القسطنطينية .

وقوع النبوءة وتمامها :

تحطمت الدولة الإيرانية وداس الروميون بعد أن تجاوزوا الحدود التاريخية القديمة للدولة البيزنطية الأراضى الإيرانية ، ونصبوا فى قلب

إيران الراية الرومية ، وهكذا تمت هذه النبوءة القرآنية وحققت فى عام ٦٢٥م أى السنة الثانية من الهجرة النبوية ـ على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ـ بمناسبة غزوة بدر الفاصلة بعد تسع سنوات من تاريخ إعلان النبوءة بالضبط ، ولم يكن ثمة من القرائن والدلائل الظاهرة ما يشير إلى تحقق ذلك أو ينم عنه .

عودة هرقل إلى خموله :

اتفق المؤرخون الأوربيون على أن أروع عهود هرقل للحكم وألمعها فى جبين التاريخ ، هو ذلك العهد الذى ثأر فيه من الفرس واسترد مملكته المفقودة ، وأن بداية عهده ونهايته لا تمتان إلى هذا العهد الأوسط بصلة ، ويبدو أن القدرة الإلهية المحصنة حركته وقدمته لهذا العمل العظيم .

فإنه قد عاد بعد تكميل مهمته ، ذلك القيصر الخامل المترف المترهل الذى عهدناه من قبل ، وأنه أسلم ـ كما يقول جبون ـ تلك الولايات التى استعادها من الفرس بحروب دامية وجهود ضخمة وتضحيات بالغة إلى العرب على مرأى منه ومسمع .

وقد حار المؤرخون فى تعليل هذا التغير والانقلاب فى نفسيته وطبيعته وصلاحيته ويقظته فى عهده الأوسط ، وغفلته وعدم جدارته وقدرته فى أول عهده ، ونهايته ، وقد حاولوا تعليلات مختلفة لعدم توازن هذه الحوادث وتنافرها ، والتعارض العجيب بين أدواره المختلفة ، يقول المؤرخ جبون :

« كان الواجب على المؤرخين البيزنطيين أن يحللوا لنا أسباب غفلة هرقل هذه وسباته ، ويقظته وتحركه ، ونحن على هذه المسافة الزمنية البعيدة بيننا وبينه نستطيع أن نتوصل إلى أنه كان رزق الجرأة الشخصية

أكثر من العزيمة السياسية وأنه كان هائمًا بجمال بنت أخيه (مارتينا) الساحر، التى خادنها واتخذها حليلته وأنه كان آخذا بمشورة مستشاريه الخرقاء وهى أن حياة ملك لا ينبغى أن تضيع فى ساحات القتال ،ولعله كان استشاط غضبا بمطالبات الفاتح الإيرانى المخزية » [١].

ويقول كاتب المقال حوله فى دائرة المعارف البريطانية :

« إن هرقل لغز من الألغاز العجيبة الغريبة،التى يصعب حلها، إنه ــ رغم كونه شجاعًا مقدامًا فى شخصيته،محنكا صالحًا للقيادة فى سياسته ــ بقى ينظر بهدوء وطمأنينة إلى مملكته وهى تخرق وتبدد، إن صلاحياته ووجهات حياته فى مختلف أدواره ليست مختلفة فحسب بل متعارضة متعاكسة .

ولكن يجب ألا ننسى أن معلوماتنا عن حياته الأسرية الداخلية ناقصة قليلة ، فيمكن أن يكون وراء هذا التعارض سبب حقيقى آخر ، وإن كان لا يعتبر تبريرًا صحيحًا لعمله ، لقد كان أفضل لبقاء صيته وجميل ذكره أنه كان قد مات بعد معاركه مع الفرس »[٢] .

لقد اعترف جميع المؤرخين الأوربيين فى هذه التصريحات أن هرقل كان قد تحول عند حربه مع إيران إنسانا آخر بطريقة غريبة ، وأنه حدث فيه تطور عجيب ، ونشأت فيه روح قلقة لم تعد بعد الحرب إليه ، وأن كل ما أحرزه واستعاده من الإيرانيين ، فقده بغفلته وتخاذله أمام العرب .

هذا ما يقوله المؤرخون الأوربيون، ولا نسلم لهم ادعاءهم الأخير بأنه تخاذل أمام المسلمين العرب ، فنحن نشك فى أن هرقل لم يقاوم

---

(١) (Decline And Fall of The Roman Empire) ج ٧ ، ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) دائرة المعارف البريطانية : ج ١١ ، ص ٦٨٢ ، الطبعة التاسعة .

الغزوات الإسلامية وأن غفلة هرقل وعدم صلاحيته للقيادة كانت أكثر تسببا فى هزيمة الروم أمام المسلمين من قوة الإسلام وشبابه ،وسيرة المسلمين الطاهرة ، ولا نخوض هنا فى هذا البحث فهو خارج عن موضوعنا هذا، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

نماذج من نبوءات أخرى فى القرآن الحكيم

توجد فى القرآن ـ عدا النبوءة السابقة بغلبة الروم التى اخترناها بشىء من الشرح والتفصيل ـ نبوءات أخرى عديدة ، ولا نقصد هنا استيعابها بل نورد ـ كأمثلة ـ بعضاً من أهم النبوءات الواردة فيه ، ويمكن أن يرجع فى شرحها وتفاصيل وقوعها إلى تاريخ ما بعد نزول القرآن الكريم .

فمنها :

١ ـ النبوءة باستخلاف المؤمنين الموحدين العابدين :

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(١) .

٢ ـ النبوءة بانتصار المهاجرين وسلطتهم ونتائج هذه السلطة الدينية والخلقية :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ

---

(١) سورة النور : ٥٥ .

اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾(١) .

٣ ـ النبوءة بظهور مسلمين جدد صالحين أصحاب كفاءات إسلامية وخدماتهم :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾(٢) .

٤ ـ النبوءة بقتال المرتدين العرب ومعارك الإسلام مع الروم وإيران :

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ (٣) .

٥ ـ النبوءة بظهور الدين وغلبته :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾(٤) .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾(٥) .

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة الحج : ٣٩ ـ ٤١ .
(٢) سورة المائدة : ٥٤ .
(٣) سورة الفتح : ١٦ .
(٤) سورة التوبة : ٣٢ .
(٥) سورة الصف : ٩ .
(٦) سورة الصف : ٨ .

٦ ــ النبوءة بحفظ القرآن الكريم :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] .

٧ ــ النبوءة بجمع القرآن ونشره وتفسيره وبيانه :

﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [2] .

يقول حكيم الإسلام الإمام ولى اللّه الدهلوى (م١١٧٦هـ) ، وهو يفسر هذه الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ يعنى أننا وعدنا وعدًا لازمًا أن نجمعه فى المصاحف وقوله : ﴿ قُرْآنَه ﴾ يعنى أننا نوفق قراء أمة محمد ﷺ وعامتها لتلاوته ، حتى تبقى تلاوة متواترة ، لا ينقطع استمرارها ،ويقول اللّه ــ عز وجل ــ لنبيه: لا تهتم ولا تظن أن القرآن ينسى من قلبك ، ولا تحاول الترداد والحفظ ، فإنها من المعجزة أن النبى الكريم ﷺ لم يحتج إلى معاناة ترداد الآيات وتكريرها للحفظ ، كما يعانى ذلك من يحاول حفظ القرآن، فإن القرآن كان يتمكن من قلبه ﷺ بتلاوة جبريل ــ عليه السلام ــ ، لأن اللّه تعالى كان قد أعطى وعدًا جازمًا بما سوف يتحقق بعد عهد رسالته ، وهو جمع القرآن فى المصاحف وتلاوة العامة والخاصة له ، فلا تتحمل أيها النبى مشقة الحفظ ، بل عندما نتلوا ذلك على لسان جبريل ، فأرهف إليه سمعك ، ثم علينا الوعد بشرحه وتفسيره الذى سوف نوفق له فى كل عصر طائفة من أمتك يشرحون مفردات القرآن ، ويبينون أسباب نزوله ويفسرون معانيه ومطالبه ، وهذا تحقق كذلك بعد

(١) سورة الحجر : ٩.

(٢) سورة القيامة : ١٦ ــ ١٩ .

تلقى النبى الكريم ﷺ للقرآن ، وتلاوته على الناس ولا سيما بعد عهده ﷺ وذلك لأن الآيات الكريمة متشابهة بعضها ببعض ، مصدقة بعضها لبعض ، والنبى الكريم ﷺ هو المبين عن الله ما نزل إليه».

« وقد تحقق وعد الله تعالى بحفظ القرآن الكريم بأنه جمع وحفظ فى المصاحف ويتلوه المسلمون شرقًا وغربًا ، آناء الليل وآناء النهار ، وهذا هو معنى ما جاء أن الماء لا يمحوه ، ويعيد إيراده ﴿جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ ﴾ فى مكان واحد وذكره ﴿ بيَانَه﴾ بعد ﴿ثُم﴾ (التى تقتضى التراخى) ، أن القرآن الكريم زمن جمعه فى المصاحف عم فى الناس وشاع تلاوة وقراءة أيضًا، أما تفسيره وبيانه فتأخرا زمنيًا » (١).

٨ ــ النبوءة بفتح مكة المكرمة وإنجازات صلح الحديبية المثمرة :

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾(٢) .

٩ ــ النبوءة بفتوح وانتصارات ومغانم كثيرة فى خيبر وغيرها :

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾(٣) .

﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾(٤).

١٠ ــ النبوءة بدخول النبى الكريم ﷺ وأصحابه المسجد الحرام بعد الحيلولة بينه وبينهم :

---

(١) «إزالة الخفاء» للإمام ولى الله الدهلوى: ج١، ص٥٠،٥١ ،طبع بريلى ١٢٨٦ هـ
(٢) سورة الفتح : ١ ــ ٣ . (٣) سورة الفتح : ٢٠ .
(٤) سورة الفتح : ٢١ .

﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إن شَاءَ اللَّهُ آمنِينَ مُحلِّقِين رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُون﴾[1] .

١١ ــ النبوءة بدنو أجل النبى الكريم ﷺ وانتشار الإسلام ودخول الناس فيه أفواجًا :

﴿إذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّه وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾[2] .

١٢ ــ النبوءة بإعطاء اللّه تعالى نبيه ﷺ الكوثر :

وتكثير أتباعه وأنصاره وورثة دينه وحملة دعوته وانقطاع دابر الكفار واندثار رسومهم وآثارهم :

﴿إنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[3] .

---

(١) سورة الفتح : ٢٧ .

(٢) سورة النصر .

(٣) سورة الكوثر .

القرآن الحكيم معجزة الهداية
والانقلاب البناء المبارك

« إن الانقلاب البناء المبارك الذى أحدثه رسول اللّه ﷺ بهذا القرآن الحميد وبسيرته النبوية الطاهرة وأخلاقه العظيمة العلية ـ التى كانت تفسيرًا عمليًا واضحًا للقرآن الكريم (كان خلقه القرآن) ـ فى العقائد والأفكار والروح والأخلاق والفرد والاجتماع ، وفى النفسية الإنسانية والطبيعة البشرية ، والذى يخلو التاريخ البشرى كله من أمثاله ونظائره ، قبله وبعده ، إن هى إلا معجزة قرآنية قائمة .

وإن هذه المعجزة القرآنية تضم بين جنبيها مئات من المعجزات ، إن كل من تأثر بهذه النبوءة فردا كان أو جماعة ، يعد معجزة مستقلة برأسها ، وإنه لم يشهد التاريخ البشرى فى أى بقعة محدودة من بقاع الأرض ولا فى أى ثلة قليلة من جماعات البشر مثل هذا الانقلاب العميق الشامل .

وينبغى هنا أن نوازن بين الجاهلية والإسلام ، ونجلى جوانب هذا الانقلاب الشامل المحيط وآثاره ونواحيه ، وهذا يضطرنا إلى عرض التاريخ العقلى والفكرى والدينى والخلقى والاجتماعى التفصيلى لعهدين منفصلين متمايزين ، الأمر الذى يحتاج ليس إلى كتاب فحسب بل إلى حلقات وحلقات من الكتب الباحثة المفصلة ، وإن وقائع الإسلام والجاهلية وتاريخها المنشور فى القرآن وكتب السيرة النبوية ، وكتب التاريخ الموثوق بها لو جمعت وضم بعضها إلى بعض لأمكن تقدير شىء من عظمة ذلك الانقلاب الذى أحدثه القرآن الكريم .

ومن جوانب الإعجاز فى هذه المعجزة أن هذا الانقلاب الشامل المحيط تحقق الشاملة المحيطة تحققت من دون تلك الوسائل والأدوات التى عرفها ويعرفها البشر ـ بصفة عامة ـ والتى استخدمها ـ عامة ـ المجددون والمصلحون فى عهودهم وفتراتهم ، وأعنى حركة العلم والدراسة والتدريس ، ونشر التعليم ، والتأليف والتصنيف ، وإقامة المدارس ،والمراكز التربوية ، والمطابع ودور النشر والتوزيع . . إلخ .

وقد أشار القرآن الكريم نفسه إلى هذا الجانب من الإعجاز إشارات لطيفة ، انظر كيف تحول الأعداء الألداء الذين كان كل واحد منهم يظمأ إلى دم الآخر أصدقاء ودودين يعيشون المحبة الأخوية الصادقة ، والود الطيب الكريم ، الذى لم يكن ليحرز ولو أنفق كل ما فى الأرض :

﴿هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١) .

ونسب القرآن الكريم حدوث التحوّل والانقلاب العظيم إلى نفسه فى غير ما موضع ،وصرح بأن القرآن هو منشئ هذا الانقلاب ومشعله :

﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾(٢) .

ويقول فى موضع آخر :

﴿هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾(٣) .

﴿ الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾(٤) .

---

(١) سورة الأنفال : ٦٢، ٦٣ .

(٢) سورة الجمعة : ٢ .

(٣) سورة الحديد : ٩ .

(٤) سورة إبراهيم : ١

وقد شرح القرآن الكريم الإسلام والجاهلية فى أسلوبه المعجز البليغ، وبين الفارق الهائل العظيم بين هذين العهدين المتمايزين :

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(١) .

﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ (٢).

والحق الذى لا غبار عليه أنه لا يمكن تصوير للجاهلية والإسلام أبرز وأنطق بالحقيقة من هذا التصوير ، ولا يمكن شرح الفوارق بين العهدين وبيان خصائص الفترتين بأوضح وأبلغ من هذا البيان ، إن تاريخ الجاهلية والإسلام كله ليس إلا تفسيراً لهاتين الآيتين ، وتفصيلاً لهذا الإجمال البليغ ، ما هى الجاهلية ؟ هى :

﴿كُنتُمْ أَعْدَاءً﴾ و ﴿كُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ ﴾ .

وما هو الإسلام مجملاً ؟ هو :

﴿ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ و ﴿ أَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ .

ولا يمكن تصوير أرقى إنسان فى الجاهلية بأصح ولا أبلغ من هذا التصوير القرآنى ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا﴾ ، وإذا أردت أن تصور الثورة الإسلامية بل سلسلة الثورات الإسلامية فى الحياة البشرية فلا أبلغ ولا أدل على ذلك من تصوير القرآن الكريم :

﴿ فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ .

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٣ .   (٢) سورة الأنعام : ١٢٢ .

القرآن الحميد والصحف السماوية القديمة في ميزان العلم والتاريخ

لقد كانت الصحف السماوية السابقة على القرآن الكريم هدفًا دائمًا للتحريف والتعديل والتغيير ، وعرضة للضياع والتفرق والاندثار ، وذلك لأن اللّه تعالى لم يتكفل بوعده لها بالحفظ والبقاء ، بل وكل أمرها إلى علمائها وحملتها وناقليها كما أن حاجة البشرية إليها سواء من آمن بها ومن كفر كانت محدودة مؤقتة، يقول الرب ــ تبارك سبحانه وتعالى ــ :

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾[1] .

وهذه حقيقة تاريخية علمية يعترف بها أتباع هذه الصحف وحملتها الذين أنزلت إليهم ، أن صحف العهد العتيق تعرضت ــ دائمًا ــ للسطو والإحراق والإغارة ، وقد اتفق المؤرخون اليهود أنه وقع ذلك فى التاريخ ثلاث مرات ، المرة الأولى : عندما حمل « بختنصر » (٥٦٤ ق م) (Nebuchadnezzar) ملك بابل على اليهود عام ٥٨٦ ق م ، وأحرق بيت المقدس ، الذى كان سيدنا سليمان ــ عليه السلام ــ أودع فيه ألواح التوراة وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، وأسر ممن بقى من اليهود وحملهم مقيدين إلى بابل ، حيث مكثوا خمسين سنة ، وأملى النبى عزرا (عزير) الصحف الخمسة الأولى من التوراة من حفظه مرة ثانية ،

---

(١) سورة المائدة : ٤٤ .

وألف الوقائع والحوادث بالترتيب التاريخى ، ثم أضاف إليها « نحميا » سلسلة أخرى من الكتب ، وألحق بها « زبور » النبى داود ــ عليه السلام .

والمرة الثانية : عندما أغار « أنطيوخوس» الرابع (Antiochus) الذى كان يلقب بـ «أبيقانس» وكان ملك أنطاكية اليونانية على بيت المقدس عام ١٦٨م وأحرق الصحف المقدسة ، وفرض الحظر على تلاوة التوراة وعلى الشعائر والتقاليد اليهودية ثم بدأ «يهودا مقابى » بجمع هده الصحف وترتيبها ، وأضاف إليها سلسلة من كتب العهد العتيق .

والمرة الثالثة : حمل « تيطوس» (Titus) (٤٠ ــ ٨١م) الملك الرومانى على بيت المقدس فى ٧/ من سبتمبر عام ٧٠ م وأحرقه مع هيكل سليمان ، وحولها أنقاضا ورمادا ، وأخذ الصحف المقدسة ــ تذكاراً لانتصاره ــ إلى العاصمة الرومية ونفى اليهود ، وأقام حول البلد مستعمرات أسكن فيها ناسا آخرين[١] .

إن موقف اليهود والمسيحيين من صحف الأنبياء والكتب السماوية ومعاييرهم لصحتها وصيانتها ومطابقتها لأصولها ، تختلف تمام الاختلاف عن موقف المسلمين من القرآن الكريم ومعاييرهم لصحته وثبوته ، إن المسلمين يعتقدون أن كل لفظة بل حرف فى القرآن الكريم منزلة من عند اللّه ــ تعالى ــ محفوظة مصونة من يوم نزولها إلى يومنا هذا ، أما اليهود فإنهم لا يرون النقص والزيادة فى صحفهم والتعديل والإلحاق فيها ينافى كونها كتبًا سماوية ، وإنهم لا يتحرجون إطلاقًا من وصف هذه

---

(١) انظر مصادر تاريخ الصحف المتدسة ، ودائرة المعارف اليهودية ، وتوجد إشارات إلى هذه الحوادث فى صحيفة نحميا ومقابين أيضًا .

الصحف بأنها من تأليف الأنبياء ، ويمكن أن يقدر موقف اليهود من كتبهم المقدسة وعقيدتهم ووجهة نظرهم فيها من المقتطفات الآتية ، جاء فى دائرة المعارف اليهودية التى قام بتأليفها كبار الفضلاء والمختصين اليهوديين :

« رغم إصرار الروايات اليهودية على أن صحف العهد العتيق هى من مؤلفات تلك الشخصيات التى ذكرت فيها ، وليس ذلك مما يخالف الواقع بتاتا ، ولكنهم لا يرون بأساً فى الاعتراف بأنه وقع فى بعض هذه الصحف تعديلات وإلحاقات » [١].

« إن الصحف الخمسة الأخيرة من التوراة (عدا الآيات الثمانية التى فيها ذكر موت موسى ـ عليه السلام) هى حسب الروايات اليهودية القديمة، من تأليفات موسى ـ عليه السلام ـ ولكن الربيين لم يزالوا يعنون بالتناقضات والاختلافات الموجودة فى هذه الصحف ، ويقومون ـ ببراعتهم ـ بإصلاحاتها وتعديلاتها » [٢].

يقول سبينوزا (Spinoza†) : « إن الصحف الأولى من العهد العتيق ليست من تأليف موسى ـ عليه السلام ـ بل هى من تأليف عزرا (عزير) ـ عليه السلام » [٣].

إن أحدث التحقيقات العلمية قد أثبتت على سبيل القطع واليقين أن «الكتب الخمسة الأولى من العهد العتيق مؤلفة مما لا يقل عن ٨٢ مصدراً

---

(١) دائرة المعارف اليهودية ص ٩٣
(Valentine''s one Volume Jewis Encyclopaedia) p . 93 .

(٢) دائرة المعارف اليهودية : ج ٩ ، ص ٥٨٩ (٢) أيضًا ص ٥٩٠ .

(٣) المصدر السابق : ص ٥٩٠ .

من المصادر » [١].

أما الأناجيل الأربعة (التى تسمى العهد الجديد) فشأنها أكثر تناقضًا واختلافًا من صحف العهد العتيق ، ويحيط تدوينها ومؤلفيها كثير من الغموض والتعقيد والعقبات والشكوك ، ويوجد بينها وبين المسيح ــ عليه السلام ــ خليج واسع كبير ، ولا يمكن ردمه أو عبوره لأى مؤرخ أو محقق ناقد ، فقد كانت الأناجيل فى المجامع الكنسية ومختلف الفترات الزمنية عرضة للتغيير والتحوير والإصلاح والتعديل بصفة مستمرة ، وعلاوة على ذلك فإنها أشبه بكتب السير والتاريخ ، والقصص والروايات، منها بالكتب السماوية ، والوحى الإلهى والإلهام الربانى .

إن هذه الأناجيل ليست بمستوى مجموعات الأحاديث بالدرجة الثانية أو الثالثة ، فضلاً عن أن تكون على مستوى الكتب الستة ، لأنها مجموعات متصلة السند إلى رسول اللّه ﷺ أولها أسانيد يعتمد عليها ويرجع إليها ، والحديث الصحيح عند المسلمين ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه من غير أن يكون فيه شذوذ أو علة[٢] ، وعلى العكس من ذلك تخلو جميع الأناجيل من جميع أنواع السند ، فليست هناك أسانيد متصلة إلى مؤلفيها ، ولا من مؤلفيها إلى سيدنا المسيح ــ عليه السلام .

---

(١) مقتبس من التفسير الماجدى (تفسير القرآن) ويرجع للاطلاع على تحديد زمن المؤلفين الأناجيل الأربعة ، واختلافات المصادر والمراجع (التى ألفت منها هذه الصحف) إلى الكتاب المهم (History of Religions) (تاريخ الديانات) للبروفيسور جيمس (E.O . James) أستاذ تاريخ الديانات فى جامعة لندن

(٢) انظر تعريف الحديث الصحيح فى كتب أصول الحديث كمقدمة ابن الصلاح و «تدريب الراوى» و «فتح المغيث» .

هذا وإن هذه الصحف التى بأيدينا ليست هى فى تلك اللغات التى نزلت بها ، والتى كان ينطق بها المسيح ـ عليه السلام ـ وقومه ، بل لم تزل تنقل من لغة إلى لغة ، ووصلت عن طريق مختلف المترجمين والناقلين ، فهى ـ فى الواقع ـ مثل كتب السيرة والتاريخ بل مثل كتب القصص والمواعظ ، ليس إلا .

وإذا لم نعدها ـ احترامًا لها وتقديرًا لأصولها ـ من كتب الروايات الضعيفة والواهية ، فلا أقل من أن نعتبرها كمجموعات الحديث بالدرجة الرابعة ، التى لم يلتزم صحتها ولم تراع فيها قواعد الرواية والتحديث ، ولأجل كل هذه الحقائق الراهنة نرى الموازنة بين القرآن الكريم وبين هذه الصحف القديمة خطأ صريحًا ، مبنيًا على الغفلة وقلة العلم ، فإن الموازنة لا تكون إلا بين شيئين متقاربين متماثلين .

ولقد أحسن المهتدى الفرنسى إلى الإسلام موسيوايتين دينيه (Monsieur Eaton Dien) إذ قال وهو يعرف بهذه الأناجيل ويحدد مكانتها العلمية والتاريخية :

« إن الإنجيل الذى أنزله اللّه ـ تعالى ـ على عيسى ـ عليه السلام ـ بلسانه ولسان قومه ، لا نشك فى أنه قد ضاع ، وأنه لم يبق له عين ولا أثر ، وهو إما تعرض لعوادى الزمن ، أو أتلفته الأيدى ، ولذلك اقتنى المسيحيون مكانه أربع مؤلفات يشك فى صحتها ومكانتها التاريخية ، لأنها توجد فى اللغة اليونانية التى لا توافق طبيعتها لغة عيسى ـ عليه السلام ـ الأصيلة السامية ، ولذلك فإن صلة هذه الأناجيل اليونانية بمنزلها واتصالها به أضعف من صلة توراة اليهود ، وقرآن العرب » (١).

---

(١) أضواء على المسيحية : ص ٥٢، ٥٣ ، وعبارته يبدو فيها مساواته بين التوراة والقرآن ، =

وتشير الشواهد الداخلية فى العهد العتيق على أخطائه التاريخية الصريحة والتناقضات الواضحة والمستحيلات العقلية، فقد نسب فيه ــ على سبيل المثال ــ إلى اللّه ــ تعالى ــ ما لا يليق أبدًا بجلاله وعظمته ، ولا يناسب صفاته التى اتفقت عليها جميع الديانات السماوية ، ويقر بها العقل السليم ، وجاءت فيه اتهامات للأنبياء لا يتهم بها الإنسان العادى ويسمو عليها ، هذا وغير ذلك من الشواهد الداخلية التى توجد فى التوراة والأناجيل التى تسمى مجموعتهما (بائبل Bible) أو الكتاب المقدس [(١)]، تدل على الزيادات والإلحاقات والتعديلات .

هذا شأن تلك الصحف التى يقدسها أتباعها منذ آلاف السنين ، والتى يعتقد فيها ويحمل لواءها شعبان اثنان من شعوب العالم المتمدنة «الراقية» (الشعب اليهودى والشعب المسيحى) واعترف بها الإسلام أيضًا إلى حد أنه خاطب حملتها بـ «أهل الكتاب» ولقبهم به .

أما «ويدا» الهند ، و «أوستا» إيران فإن زمنهما أعرق فى القدم ، وإن المعلومات التاريخية عنهما أقل ، والتوصل إلى معانيهما الحقيقية ومقاصدهما الأساسية أعسر وأصعب مع عوادى الزمن والحوادث التاريخية بحيث يشك فى صحتهما شكًا قويًا ، ويتعسر الوصول إلى تحديد

= فى الثقة ، فلعلها صدرت منه قبل إسلامه ، أو أنه أراد به غير معناه الظاهر ، كما أن قوله : «قرآن العرب» تعبير غير سليم .

(١) يرجع إلى كتاب « إظهار الحق» الكتاب الفريد فى موضوعه للعلامة الشيخ رحمة اللّه الكيرانوى (م ١٣٠٨هـ) دفين مكة المكرمة ، فقد ذكر المؤلف ١٢٢ اختلافًا وتحريفًا لفظيًا فى هذه الصحف ، وأخذ عليها ١٠٨ من الأخطاء التى لا يمكن تأويلها وقد طبع الكتاب على نفقة الشئون الدينية فى قطر سنة ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠م) بعناية الشيخ عبد اللّه بن إبراهيم الأنصارى ــ رحمه اللّه .

زمنهما ، وإبداء أى رأى علمى حولهما .

يقول بارته (A . Barth) عضو الجمعية الملكية الآسيوية لباريس (The Society Asistis of paris) فى كتابه (The Religions of India) (الديانات الهندية)[1]:

« لو نحينا بعض الإلحاقات التى لا يصعب فصلها وتنحيتها على محك النقد فإن هذه الصحيفة تبقى أصيلة وأنها لا تدعى عن نفسها إلا ما هى فعلا ، فلا تدعى أنها من الله ، ولا تخفى عمرها الحقيقى بطريقة صناعية ، وقد زيدت فيهما زيادات وتحريفات كثيرة ، ولكنها كلها كانت بحسن الطوية ، وبالرغم من ذلك يصعب علينا تحديد عمر هذه الصحف، وأن برهمنا (Brahmana) الصحف التى حررت فى الأخير ، ليست هى بأقدم من بداية عهدنا أكثر من خمسمائة عام ، أما المواد المذكورة فى «ويدا» فهى أقدم منها ، أقدم إلى حد أنه لا يمكن أن يقال فيها شىء وإن إبداء شىء من الرأى فى أقدم كتاباتها أمر مستحيل » .

حتى الأساتذة الهندوس والمختصين المحققين فى تاريخ الديانات الهندية ، ماذا يرون عن هذه الصحف وما هو موقفهم ، وإلى أين توصلوا بعد البحث والتفكير الحر ، يمكن أن يقدر ذلك من هذين الاقتباسين التاليين :

يقول الفاضل المعروف سريش جندرا جكرورتى (Suresh Chandra Chakravarti) المحاضر فى جامعة كلكتا ، فى كتابه (philosophy of The Upanishads) (فلسفة أو بنيشدا) :

« ولقد قدمت فى هذا الصدد وجهتان للأنظار ، يمثل إحداهما «بال

---

(١) طبعة دلهى عام ١٩٦٩ م : ص ٥٠٤ .

جنجادهر تلك » ويمثل الثانية مكس مولر (Maxmullar) يرى «تلك» أن تاريخ ابتهالات «ويدا» يرجع إلى ٤٥٠٠ قبل المسيح ، على حين أن مكس مولر لا يراها أقدم من ٢٢٠٠ قبل المسيح، رغم كونه متفقًا معه على أن «رك ويد» أقدم وثيقة للتفكير والتخيل الآرى ، ويمكن – من دون تحديد عمر «رك ويد» – أن يقال إنه بالرغم من جمع ابتهالات «رك ويد» فى مجموعة واحدة ، لم تحرر هى فى زمان واحد ،ولذلك لا يمكن تقدير عمره بتحديد تاريخها وتحريرها ،ولا بد من التسليم بأن جميع ابتهالات «رك ويد» من أولها إلى آخرها،ألفت على مدى قرون عديدة»(١).

ويقول الدكتور «رادها كرشنن» الفيلسوف الهندى المعروف (ورئيس الجمهورية سابقًا) وهو يلقى الضوء على التصور الأساسى فى «ويدا» فى كتابه « Philosophy Indian » (الفلسفة الهندية) ، المجلد الثانى :

« إن التصور الفكرى الإجمالى الذى تعرضه كتب «ويد» ليس محدودًا ولا واضحًا ولذلك يمكن لمختلف المدارس الفكرية أن تستخدمه بمختلف أساليبها ومناهجها ، وعلاوة على ذلك فإن سعة هذه الكتب وضخامتها تحتمل احتمالا كاملاً لأن يأخذ منها المؤلفون الأدلة والشواهد بحرية تامة حسب معتقداتهم وآرائهم » (٢).

أما «أوستا» صحيفة إيران القديم الدينية التى يعتقد الفرس (persians) أنها صحيفة سماوية ، فإننا نقدم هنا عنها شهادة لعالم غربى كانت موضوع دراسته الخاص :

---

(١) (فلسفة أو بنيشدا) طبع كلكتا لعام ١٩٣٥ م : ص ٢٤ــ ٢٦ .

(٢) طبع لندن ، عام ١٩٢٧ م : ص ٢١،٢٢ .

يقول رابرت ح . بفائفر(Robert H . pfeiffer) رئيس قسم اللغات السامية بجامعة هاروورد (Department of Semitic) فى دائرة المعارف للديانات(An Encyclopaedia of Religions) :

« لقد كانت «أوستا» ــ حسب ما تقوله الروايات ــ مجموعة جميع العلوم ، وقد أتلف أكثر أجزاءه الإسكندر المقدونى ، ثم ألف من الأجزاء الباقية كتاب يشتمل على ٢١ جزءًا أو «نسك» (Nask) ــ كما يسمون ــ فى القرن الثالث المسيحى ، ولكن لم يبق من هذه الأجزاء جزء كامل إلا الجزء الذى يسمى «ونديداد» (Vendida)وحمل منه شيء يتعلق بالعبادات إلى الهند بعد القرن التاسع المسيحى ، وهو الذى يوجد بها فى خمسة أجزاء، تسمى «ياسنا» (Yasna) و«جاتا» (Gatha) و«ويسبرد» (Vespered) و«ونديد» (Vendid) «خوردا ويستا»(Khordaavasta) :

ولكن القرآن الحميد الذى هو كتاب اللّه الأخير ، ومصدق لكتب اللّه السابقة ، ومهيمن عليها وهو المسئول عن هداية البشر وربط المخلوقين بالخالق ودعوتهم إلى اللّه من زمن البعثة المحمدية ــ صلى اللّه على صاحبها وسلم ــ إلى يوم القيامة ، فإنه يختلف عن جميع الكتب السماوية كل الاختلاف ، فشأنه ليس كشأنها ، وقد وعد اللّه ــ تعالى ــ بنفسه بحفظه وصيانته من كل تحريف وتغيير ، ونقص وزيادة ، يقول اللّه تبارك وتعالى :

﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[١].

وقد حفظ كذلك من المحو والتشوية ، وأن يستهدف للغو والباطل،

(١) سورة فصلت : ٤١، ٤٢ .

أو أن ينسى من الذاكرة ، ويمحى من الصدور ، أو يتعرض للتلف والضياع فى حادثة من الحوادث كما وقع مع التوراة مرارًا ، كل ذلك مع القرآن ممنوع :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١).

إن هذا الوعد الجازم للحفظ يشمل حفظ القرآن فى المصاحف والصدور ، وبقاءه غضًا طريًا ، ونشره ، ورواجه ، وتلاوته وفهمه ، وأنه محفوظ من أن يهجر ، أو يعطل ، أو لا يعمل به ، أو لا يفهم أو يصبح فى يوم من الأيام نسيًا منسيًا ، فكلمة «الحفظ» العربية البليغة تحمل آفاقًا واسعة ، ومعانٍ عميقة تامة .

ولما قضى اللّه ــ عز وجل ــ بأن يبقى هذا الكتاب على أصالته وبجميع لوازمه ــ حسب ما أنزل على الرسول الكريم ﷺ وجه لتحقيق هذا الغرض الجليل النفوس البشرية ، والأسباب الطبيعية والخارجية والحوادث التاريخية ، فكلما كان رسول اللّه ﷺ يتلو آية كريمة ، وترن فى أسماع المسلمين ، إذا بهم يتقبلونها تقبلا ، ويضمونها إلى صدورهم، وينقشونها فى قلوبهم ، ويتهافتون على حفظها واستظهارها تهافت الفراش على النور .

وقد كان من أسباب هذا التنافس والمسارعة إلى حفظه حبهم للقرآن، وشغفهم به ، كما كان لإعجاز القرآن وبلاغته وحلاوة جرسه ، وجمال نبراته وتناسب ألفاظه ، زد إلى ذلك الآيات والأحاديث الواردة فى فضل حملته وحفاظه (٢)، تأثير أيما تأثير، ثم ارتباط المسلمين بالقرآن عن طريق

---

(١) سورة الحجر : ٩ .

(٢) انظر فى فضائل القرآن أبواب فضائله فى كتب الحديث ، واقرأ رسالة «فضائل القرآن » للإمام عماد الدين الحافظ ابن كثير (م٧٧٤هـ) فى آخر تفسيره المشهور .

صلواتهم وجميع عباداتهم ، وعن طريق تشريعهم وأحكام دينهم ، ومدنيتهم واجتماعهم ، وعلومهم وآدابهم ، فى كل هذه الجوانب كان القرآن الكريم ولا يزال مصدرهم الأول ، ومرجعهم الذى إليه يرجعون .

لقد أنشأ كل ذلك فى المسلمين صلة روحية قلبية بالقرآن الكريم بلغت حد تعشقه والهيام به ،وكثر فيهم من بداية العهد الإسلامى حفاظ القرآن كثرة مدهشة ، حتى استشهد فى حادثة بئر معونة عام ٣ هـ سبعون من المسلمين الذين كانوا يدعون «القراء» أى الحفاظ العلماء [١]،ولم يزل عدد الحفاظ بزيادة نسبة المسلمين والرغبة فى حفظ القرآن فى ازدياد ونمو بالغين حتى أصبح حفظ القرآن الكريم منتشراً فى كل مدينة وكل قرية صغيرة وكبيرة ،وفى كل مجتمع مسلم إلى حد مدهش .

ولم يزل المسلمون ينقلون القرآن الكريم من صور إلى صدور شفاها وكتابة ،وبلغوا فى حفظه من الإتقان والمهارة وفى قراءته وتصحيح مخارجه ، وأحكام قواعده من الدقائق الفنية والكمال العلمى ، وفى التنافس فيه وكثرة تلاوته والتعبد به من الشوق والهيام ما يحير الألباب ، ولا يصدقه عامة غير المسلمين إن ذكر لهم ، نعم أولئك الناس من غير المسلمين الذين يعيشون فى بيئة إسلامية ولهم صلات مع المسلمين ، فإنهم يمكن أن يقدروا ذلك بعض الشىء ،وقد كان عدد هؤلاء الحفاظ فى كل عصر أكثر من أن يحصى ، وإنهم الآن ليتجاوزون مئات الألوف فى شبه القارة الهندية فحسب .

لقد صرف اللّه ــ عز وجل ــ خلفاء الرسول الكريم ﷺ والمسئولين

(١) البداية والنهاية : ج٤ ، ص ٧١ ، وحديث بئر معونة مشهور ، وقد أخرجه البخارى ومسلم وأصحاب السنن الأخرى .

عن شئون المسلمين إلى هذا الأمر بطريقة إلهامية ، فلما استشهد حفاظ القرآن الكريم فى معركة اليمامة [١] بكثرة مقلقة ، خافوا أنه إذا استمر القتل بمثل هؤلاء فإنه يخشى على بقاء القرآن ــ لو كان معتمداً على الحفظ فى الصدور ــ ويتعرض لخطر الضياع .

وقد هجس هذا الهاجس أولا فى خاطر عمر الفاروق ــ رضى اللّه عنه ــ الذى كان دائمًا أسبق إلى تقدير مصالح المسلمين وضروراتهم ، والذى كان صوت ضميره يوافق ــ أكثر الأحيان ــ نداء الحق ومقاصد الشرع المنير ــ فتقدم إلى أبى بكر الصديق ــ رضى اللّه عنه ــ باقتراح جمع القرآن الكريم ، وكتابته فى صحيفة واحدة ، وكان قبل ذلك مكتوبًا مفرقًا فى الأدم والعسب [٢] ، واللخاف [٣]، ومحفوظا فى صدور الناس، فشرح اللّه ــ عز وجل ــ صدر أبى بكر ــ رضى اللّه عنه ــ لذلك .

وولى كاتب الوحى الأمين زيد بن ثابت ــ رضى اللّه عنه ــ هذا العمل ، فقام به زيد باهتمام بالغ وعناية منقطعة النظير ،وجمع القرآن من صدور الحفاظ وصحف كتاب الوحى ، ومن الأدم والعسف واللخاف المحفوظ فى بيوت الناس ، وهكذا ظهرت هذه الصحيفة القرآنية المجموعة فى مكان واحد التى يعول عليها الناس ،ويرجعون إليها .

ولما جاء عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ــ رضى اللّه عنه ــ وانبث القراء والحفاظ بسبب كثرة الفتوح فى مختلف الأقطار والأمصار ، وانهال الناس عليهم يتعلمون منهم ويقبلون على قراءاتهم ، وكانت هذه

---

(١) كانت حرب اليمامة فى أيام أبى بكر ــ رضى اللّه عنه ــ سنة ١٣ من الهجرة ،وقتل فيها مسيلمة الكذاب .

(٢) العسب جمع عسيب ، وهو جريد النخل الذى ليس عليه ورق .

(٣) اللخاف جمع لخفة ، وهى صحائف من خطية الحجر الأبيض .

القراءات تحتمل سبعة أحرف أنزل اللّه بها القرآن للتيسير على الأمة العربية المترامية الأطراف فى أول عهدها بهذا الكتاب ، وظهرت للناس عدة وجوه فى هذه القراءات ، وسبب دخول الأعاجم بكثرة فى الإسلام اختلافًا فى اللهجة والأداء،وعدم فهم لحكمة التيسير فى وجوه القراءات المتعددة ، وخاف الصحابة ــ رضى اللّه عنهم ــ أن يؤدى هذا الاختلاف الذى سيشتد ويحتدم ــ وقد احتدم فى بعض الأماكن فعلا ــ أمر عثمان ــ باستشارة من الصحابة ــ رضى اللّه عنهم ــ واتفاق عنهم ــ بأن يقرأ هذا القرآن على لغة قريش التى نزل عليها أصلاً ،وأمر بإعادة الكتابة مراعاة للغة قريش فى وجوه القراءات ،وبعث بهذه النسخ إلى كل مدينة إسلامية ، واستبقى نسخة منها فى المدينة المنورة تسمى«المصحف الإمام».

وهذه هى النسخة التى أجمعت عليها الأمة ، وقبلتها ، وتداولتها عبر القرون والأجيال ، وعمرت بها القلوب ورطبت بها الألسن ، فحفظوا القرآن الكريم ، وتعبدو اللّه ــ تعالى ــ ولا يزال الاعتماد إلى يومنا هذا من أقصى العالم إلى أقصاه على هذا المصحف العثمانى الإمام، ولم يختلف فيه من ٢٥هـ الذى كان فيه هذا الاتفاق على هذا المصحف المختار أى اثنين فى أى مجتمع إسلامى ، ولم يعثر على كشف جديد لنسخة أخرى فى أى مكتبة من مكتبات العالم ولا فى أى متحف من متاحف الآثار القديمة (١).

---

(١) يقول المستراوى منغانا (أستاذ جامعة مانشستر سابقًا) : توجد فى المكتبات الأوربية نسخ خطية كثيرة للقرآن الكريم ، وأقدمها نسخة من القرن الثانى الهجرى ،ولكنها كلها لا تحمل أى اختلاف لفظى ، اللهم إلا اختلافًا فى اللفظ ، وهو بسبب الخلل فى الخط العربى القديم ، وأبدى مثل هذا الرأى الأستاذ نولدك (Noeldeke) فى دائرة معارف الديانات والأخلاق : ج١ ، ص /٥٤٨،٥٤٩ .

لم يزل المسلمون بعد الانتهاء من عملية جمع القرآن وتدوينه فى المصحف مجمعين إلى يومنا هذا على الأخذ به ، ولقد حفظ القرآن الكريم بعد كل ذلك ولا سيما الآن من أن تمتد إليه يد التحريف ، أو يغير فيه حسب الأهواء والرغبات لكثرة حفاظه وحملته ، وسعة انتشاره وكثرة طباعته ، وقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية الاعتراف التالى :

« إن القرآن هو أكثر الكتب على وجه الأرض تلاوة وقراءة » [1].

ويوافق المستشرقون والباحثون الغربيون ـ الذين لا يرون القرآن كتابًا إلهيًا ، نزل بطريق الوحى على محمد ﷺ على الرأى السابق ، ونسوق ـ فيما يلى ـ بعض أقوال الباحثين المسيحيين فى هذا الصدد :

يقول سروليم ميور ـ الذى يعرف بالتحامل على الإسلام ورسول الإسلام محمد ﷺ والذى اضطر كتابه :« Life of Mohammad » سيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكراه الإسلامية ـ الذى كان حامل لواء التعليم الحديث للمسلمين ـ إلى أن يرد عليه بكتابه : « الخطبات الأحمدية » ـ يقول هذا الباحث :

«لقد نشأت بعد مضى ربع قرن من الزمن على وفاة محمد ﷺ مناقشات حادة وتحزبات شديدة أدت إلى مقتل عثمان ـ رضى اللّه عنه ـ ولا تزال هذه الخلافات موجودة الآن ، إلا أن القرآن المشترك بينهم هو قرآن واحد ، وإن تلاوة هذه الفرق والطوائف ـ التى ظهرت بسبب التحزبات ـ لهذا القرآن الواحد بصفة متواترة مستمرة فى كل عصر حجة قاطعة على أن الصحيفة التى بأيدينا هى نفس تلك الصحيفة التى أعدت

---

(١) انظر دائرة المعارف البريطانية ، تحت عنوان « محمد » ﷺ.

بأمر الخليفة السيئ الحظ [1]، ولعله لا يوجد فى العالم كله كتاب مثله بقى مدى القرون الإثنى عشر على أصالته بدون تحريف وتغيير، وإن الخلافات فى قراءات القرآن هى أيضًا قليلة جدًا إلى حد مدهش ، وهى كذلك بسبب الإعراب والشكل الذى كان بعد زمن طويل » [2].

ويقول وهيرى (Wherry) فى تفسيره للقرآن :

«إن القرآن هو من بين جميع الصحف القديمة أكثرها أصالة وعدم اختلاط بغيره (Purest) » [3].

«إن الصحيفة التى رتبها عثمان ــ رضى اللّه عنه ــ لم تزل من عهده إلى يومنا هذا متفقًا عليها و معترفًا بها » [4].

ويقول لين بول (Lane poole) :

«إن أكبر محاسن القرآن أصالته غير مشكوك فيها ، كل حرف نقرأه منه اليوم يمكننا أن نثق بأنه هكذا من قرابة ثلاثة عشر قرنًا من الزمن غير مغير ولا محرف » [5].

لهذه الحقيقة القاطعة لم تكن للإسلام من حاجة إلى نبوءة جديدة تقضى على الشكوك والشبه ، وتميز الحق من الباطل ،وتفضح كذب

---

(١) يريد به سيدنا عثمان ــ رضى اللّه عنه ــ وقتله ، ولكنه لا يعرف أن عثمان لم يكن سيئ الحظ كان سعيدا بالشهادة ، إنما كان سيؤوا الحظ أولئك الثائرون والمنتهكون لحرمته الذين لم يراعوا إلا ولا ذمة .

(٢) «حياة محمد» (Life of Mohammad) لسر وليم ميور (Sir William Muir) .

(٣) (Commentary of The Quran, vol . 1,p349) تفسير القرآن ج١ ، ص٣٤٩ .

(٤) (The Quran Introduction . p . 79) تعريف بالقرآن لوهيرى : ص٧٩ .

(٥) هذه المقتطفات والشواهد كلها مقتبسة من «تفسير القرآن » الإنجليزى ، للعلامة عبد الماجد الدريابادى .

الكاذبين ، ولم يكن ثمة من داع إلى كتاب آخر يحل محل الكتب المنسوخة التى كانت عرضة للتحريفات والإلحاقات والتعديلات [1].

﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيد﴾ [2].

---

(١) مقتبس من « النبوءة والأنبياء » للمؤلف : ص ٢٢٧ ــ ٢٣٤ .

(٢) سورة فصلت : ٤١، ٤٢ .

شروط الاستفادة من القرآن العظيم موانعها، ومؤيداتها

إن خطاب القرآن العظيم عام لجميع الجنس البشرى ، ولكن كما أن قطع الأرض تختلف فيما بينها فى مراتب استعداداتها وصلاحياتها ، ودرجة حاجتها إلى الماء وشدة انتظارها له ، ثم درجة الاستفادة منه والتمتع به ، وكما أن الغذاء مهما كان طيبًا سائغًا ـ يختلف تأثيره من معدة إلى معدة أخرى ، كذلك القرآن ـ رغم كونه يخاطب الجميع وينزل على الجميع ـ تختلف صلاحيات الناس فى قبوله والاستفادة منه والاستمتاع به ، فالشيء الواحد يتفاوت أثره وتختلف نتائجه بسبب اختلاف الأوعية الإنسانية ، والاستعدادات البشرية .

وقد ذكر اللّه ـ تعالى ـ هذا الاختلاف للآثار والنتائج فى القرآن الكريم ، وجمع بين نتيجتيه المتعارضتين فى مكان واحد ، فقال :

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾(١) .

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾(٢) .

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى

(١) سورة الإسراء : ٨٢ .　　(٢) سورة فصلت : ٤٤ .

رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾(١) .

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾(٢) .

وبين الله ـ عز وجل ـ فى بعض الآيات تأثيرها على المؤمنين ، وفى بعضها الآخر تأثيرها المعاكس على الكفار .

فتأثير القرآن على المؤمنين :

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(٣) .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٤) .

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٥) .

وتأثير القرآن على الكفار :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾(٦) .

---

(١) سورة التوبة : ١٢٤، ١٢٥ .
(٢) سورة البقرة : ٢٦ .
(٣) سورة البقرة : ٢، ٣ .
(٤) سورة الأنفال : ٢ .
(٥) سورة الزمر : ٢٣ .
(٦) سورة الحج : ٧٢ .

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾[1] .

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [2] .

ولكن القرآن الكريم لم يكتف بعرض هذا التأثير ذى الوجهين ، على الكفار والمؤمنين ، فيزداد المؤمنون إيمانًا ، ويستفيدون من هذا الكتاب ويزدادون هدى ويزداد الكفار بعدًا وضلالاً وعنادًا ، بل ذكر صفات وعقائد وأعمال إزاء ذكر المؤمنين والكفار ، يبدو أن هذه الصفات والأعمال المختلفة المتوازية هى المؤثرة فى صدور النتائج المتعارضة والآثار المتعاكسة ، ويمكننا فى ضوء هذه الصفات التى ينوه بها القرآن مع الفريقين أن نشرح شروط الاستفادة من القرآن ، وموانع الاستفادة منه ، وأن نعرف ما هى الأخلاق والأعمال ، وما هى العقلية والتربية النفسية التى تنسجم مع القرآن الكريم وتلائمه وتساعد فى فهمه والتمتع به ، وما هى العقلية والسيرة المنحرفة التى لا تليق بالقرآن الكريم ، وتجعل بين القرآن ومخاطبه حجابًا كثيفًا وتضاد نتائجه الثورية الإصلاحية المرجوة ، هذا ما سنبينه فى الفصل القادم تحت عناوين متعددة :

---

(١) سورة الزمر : ٤٥ .

(٢) سورة التوبة : ١٢٧ .

موانع الاستفادة من القرآن الكريم

لقد ذكر القرآن الكريم موانع الهداية والاستفادة من القرآن الكريم مع ذكر شقاء الكفار ، وحرمانهم ، مما يدل على أن هذه الصفات والأخلاق والمعتقدات التى يتسم بها الكفار ويصرح بها القرآن ، والتى تقاوم ثورة القرآن الروحية والعقيدية وتأثيره الإصلاحى العظيم ، إذا تحققت فى المسلمين فإنها تقع حاجزًا بينهم وبين القرآن ، وتمنعهم من الاستفادة به ، ونذكر هذه الصفات التى نص عليها القرآن بشىء من الاختصار :

١ ــ الكبر :

إن من أقوى أسباب الحرمان من آثار التعاليم النبوية ونتائجها وبركاتها، ومن سعادة اتباعهم والاقتداء بهم هو الكبر المنتفخ والعزة الكاذبة ، والاعتداد الأجوف بالنفس وما يشبه ذلك من أمراض نفسية جاهلية .

فتارة يكون هذا الاستكبار يمنع من قبول الحق والإذعان له مباشرة ، إذ أن ذلك يدعو صاحبه إلى التخلى عن جاهه وسلطانه ، وتقاليده الجاهلية وطقوسه ،والحرمان من كثير من الفوائد المادية الظاهرة ، ويدعوه إلى ترك الحياة المطلقة من كل قيد ، حياة الهوى والحرية الكاملة ، والتقيد بالحياة الشرعية ، والالتزام بالحدود والأحكام والضوابط .

وتارة أخرى يواجه كثير من الناس عنتا ومشقة فى تغيرهم ، وانقلاب سيرتهم ، ويحول دونهم الاستكبار الذى يحملهم على الجحود والإنكار، وهؤلاء الذين تصفهم هذه الآيات التالية :

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١).

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢).

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾(٣).

وتارة يمنعهم الاستكبار والجحود بما يرون من حالة الأنبياء المادية الظاهرة ، وقلة ذات يدهم ، من الاعتراف برسالتهم وتعاليمهم ، ويرون في اتباعهم والإقتداء بهم غضاضة وعاراً ، ولقد قال فرعون وهو يستكبر عن رسالة موسى ــ عليه السلام ــ :

﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ . فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾(٤) .

وقال كفار قريش :

﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(٥) .

وتارة تقع بشرية الرسول هي السبب المانع ــ في نظرهم ــ عن قبول الحق الذي جاء به :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا

---

(١) سورة الأعراف : ١٤٦ .
(٢) سورة الجاثية : ٧، ٨ .
(٣) سورة المدثر : ٢٣ ــ ٢٥ .
(٤) سورة الزخرف : ٥٢ ، ٥٣ .
(٥) سورة الزخرف : ٣١ .

وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾(١) .

﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾(٢) .

وأحيانا يعتذرون ــ مستكبرين ــ عن قبول الحق بحالة أتباعه الاقتصادية الضعيفة ، ومهانة حرفهم ، وضعة أنسابهم ، وخساسة أصلهم ، ويجعلون هذا هو المانع لهم من الاشتراك فى الجماعة المسلمة :

﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾(٣) .

افترضوا لأنفسهم ــ لأجل إقبال الدنيا عليهم وجاههم ومواتاة الحظ لهم فى المال والمتاع ــ أنهم هم المستحقون لكل خير ،وأنه لن يكون خيراً ما لم يسبق إلى أيديهم ويحضر لديهم :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ (٤) .

هذه هى الأسباب التى يكون بها مترفو القرية وأغنياؤها وذوو الأموال الطائلة فيها أسبق الناس إلى تكذيب الأنبياء ومعارضة دعوتهم ورسالتهم وأسبقهم إلى الاستطالة والسطو والإجرام :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾(٥) .

---

(١) سورة التغابن : ٦

(٢) سورة الفرقان : ٧ .

(٣) سورة هود : ٢٧ .

(٤) سورة الأحقاف : ١١ .

(٥) سورة سبأ : ٣٤ .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ [١].

وعلى كل فإن الاستكبار ــ أيا كان سببه والدافع إليه، ومهما كانت أشكاله ومظاهره مختلفة ــ يقع سدا وحاجزا سميكا دون التمتع بالقرآن والاستفادة منه .

إن الشرط الأساسى فى قبول تعاليم القرآن ، وتطبيقها على النفس، وتحكيمها فى الحياة وفى الإذعان لقيادة الأنبياء وهدايتهم ،هو التواضع ، والتسليم ، والرضا والإيثار :

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [٢] .

٢ ــ المجادلة :

إن الجدال والمراء فى القرآن بغير ما دليل وبرهان ،ومغالبته بذلاقة اللسان ، وسلاطة البيان ، والإدلاء بالآراء فيه من غير حجة وسلطان ، يحرم من هدايته ويمنع من رفده وفيضه وينم عن كبر مستور فى الصدور:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[٣].

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [٤] .

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[٥].

---

(١) سورة الأنعام : ١٢٣ .
(٢) سورة النساء : ٦٥ .
(٣) سورة غافر : ٥٦ .
(٤) سورة سبأ : ٥ .
(٥) سورة غافر : ٣٥ .

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [1].

٣ ـ الكفر بالآخرة وعبادة المادة :

إن الكفر بالآخرة من بين معتقدات الكفر من أشد الموانع عن التأثر بالقرآن الكريم والاستفادة منه ، لأن أساس القرآن الأول فى ترغيبه وترهيبه ، ومواعظه وإصلاحاته ، هو الإيمان بالآخرة ، إنه يحذر من عواقب الآخرة ، ويطمح فى ثوابها ونعائمها ، ويقدم جميع المعلومات اللازمة لهذه الرحلة الخطيرة ، ويدل على منازلها ويضىء طريقها ، ويعطى عنها تعليماته وإرشاداته ، ولأجل ذلك فإن الذين يرجون الآخرة، ويظنون أنهم ملاقوها ، لا يمكنهم أبدًا أن يستغنوا :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[2] .

أما الذين لا يؤمنون بالآخرة أو يؤمنون بها ولكن رانت على قلوبهم الدنيا واستحوذت عليهم المادة ، ولا ينظرون فى جميع قضايا الحياة إلا النظرة المادية البحتة ، هؤلاء لا ينفعهم القرآن ولا يؤثر فيهم .

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا . وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾[3] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [4].

---

(١) سورة الأنعام : ١١٢ . (٢) سورة الأنعام : ٩٣ .
(٣) سورة بنى إسرائيل : ٤٥، ٤٦ . (٤) سورة النحل : ١٠٤ .

﴿ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١).

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾(٢).

إن النظرة المادية المسيطرة عليهم تجعلهم من الغباوة والبلادة بمكان حيث لا تعمل عقولهم فى غير الأشياء المادية ، بل تتعلق دونها وينكرون بما وراءها :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (٣).

﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ (٤).

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (٥).

وشىء آخر لا يخص الكفار بل يعمهم وغيرهم ، هو الاستدلال بالآيات المتشابهة على الأهواء والأغراض الشخصية وإضلال الناس بالتحريفات والتأويلات الباطلة ، الذى لا يكون الدافع إليه إلا زيغ القلوب وفساد النوايا :

﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾(٦).

---

(١) سورة النحل : ٢٢ .
(٢) سورة النجم : ٢٩، ٣٠ .
(٣) سورة يونس : ٧ .
(٤) سورة النمل : ٦٦ .
(٥) سورة الروم : ٧ .
(٦) سورة آل عمران : ٧ .

مؤيدات الاستفادة من القرآن الكريم

١ ــ الرغبة والطلب :

إن من الشروط الأولية الأساسية للاستفادة من القرآن الكريم والانتفاع به ، هو وجود الرغبة إليه ، والطلب للاستفادة منه ، فمن لم تتحقق عنده الرغبة والطلب ماذا يكون تأثير القرآن فيه ؟ إن من سنة اللّه ــ تعالى ــ ونواميسه أنه لا يعطى إلا بالرغبة والسؤال ، وللرغبة والسؤال عنده قيمة كبيرة ، فالقلق على الوضع الراهن وعدم الاقتناع به ، والجهد للإصلاح والتغيير ، والبحث عن الطريق هو أول خطوة عنده فى سبيل السعادة ، فلابد من الأوبة والإنابة أولاً ، ثم تغير الوضع وانقلاب الحال ثانيًا :

﴿ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ (١) .

﴿ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (٣) .

إن التولى والاستغناء عن الدين علامة على الشقاء والحرمان المبين :

﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (٤) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٥) .

(١) سورة الرعد : ٢٧ .
(٢) سورة الشورى : ١٣ .
(٣) سورة الرعد : ١١ .
(٤) سورة التغابن : ٦ .
(٥) سورة فاطر : ١٥ .

والذين لا رغبة لديهم فى الدين ، ولا يجذبهم نداء القرآن ، يتحدث عنهم القرآن فيقول :

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ ﴾(١) .

﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ﴾(٢) .

﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ . وَمَا أَنتَ بِهَادِى الْعُمْىِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ (٣) .

٢ ــ الاستماع والاتباع :

إن القرآن ــ بطبيعة الحال ــ صحيفة ، وهداية وإرشاد ، فالدرجة الأولى فى سلم الاستفادة منه هو الاستماع والإصغاء إليه ، فمن لم يصغ إليه ولم ينصت له كيف يرقى السلم ، وكيف يقطع مراحل الطريق ؟!

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (٤) .

ولكن الاستماع المحض لا يغنى من جوع ، فما اقتضى منه العمل ــ وكله يتطلب العمل ويقتضيه ــ لابد من الأخذ به وتطبيقه والعمل عليه ، فإن العلم ما لم يصحبه عمل ، ترف عقلى ليس غير ، ولذلك أردف القرآن الكريم ذكر الاتباع بعد الاستماع .

٣ ــ الخشية والرهبة :

إن أساس القرآن الكريم على تصور الله رب العالمين وعلى خشيته

(١) سورة يونس : ٤٢ .
(٢) سورة يونس : ٤٣ .
(٣) سورة النمل : ٨٠، ٨١ .
(٤) سورة الزمر : ١٧، ١٨ .

والرهبة ، والاستشعار بجلاله وكبريائه ، فمن فرغ قلبه من خشية اللّه ، ولم يعد لديه لاسم اللّه تأثير وجاذبية وجلال ، فقد أضاع رأس مال الدين، وفقد حاسته ، وانطمست مشاعره ، ومعلوم أن من يفقد حاسة من الحواس فإنه يفقد ـ طبعًا ـ الإحساس بالمحسوسات المتعلقة بها ، ولا يمكن له بعد ذلك إدراكها ، وقد صرح القرآن بأنه يستفيد منه من يخشى اللّه ، ويشعر بعظمته وجلاله ، والذى لا تزال تحت رماده جمرة متقدة ، أما من ظلت مراجل قلوبهم خامدة باردة ، فإنهم يستمعون إلى القرآن بقلوب باردة ، ولا يرجعون بحرارة وقبسات مشتعلة :

﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (١) .

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ (٢) .

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ (٣) .

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤) .

٤ ـ الإيمان بالغيب :

إن قطاعًا كبيرًا مهما من الدين هو ذلك الذى يتجاوز حدود الحواس البشرية والعقل البشرى ، وهى تلك الحقائق الدينية الكثيرة ، التى لا يدركها الإنسان بمحض حواسه الظاهرة ، فلا يراها بالأعين ولا يلمسها بالبنان ، ولا يشمها بالأنف ، ولا يذوقها باللسان ، ولا يتدخل فيها العقل الكليل ، لأن مهمة العقل ليست إلا التوصل بمدركات الحواس الظاهرة والمعلومات المجموعة ، والتجارب السابقة إلى مدركات أخرى

---

(١) سورة ق : ٤٥ .
(٢) سورة يس : ١١ .
(٣) سورة الأعلى : ١٠ .
(٤) سورة الزمر : ٢٢ .

ومعلومات أخرى لم تكن حاصلة لديه ، أما الأشياء التى لا يمكن إدراكها بالحواس الظاهرة ولا بالتجارب السابقة ، ولا توجد عند الإنسان مباديها وأوائلها ولا أساس للقياس والرأى فيها ، فماذا يغنى العقل هناك؟ وماذا يستنتج وعلى ماذا يقيس ؟ [١].

إن صفات اللّه ــ عز وجل ــ والوحى ،والملائكة ، والآخرة ، والجنة، والنار ، وأمثال هذه ، كلها حقائق لا تنافى العقل ولا تعارضه ، ولكنها وراء طور العقل وفوق حدوده وأبعاده ، وإنها من الغيوب[٢]،التى لابد فيها من الثقة الكاملة بالأنبياء والمرسلين والإذعان الكامل لكل ما يقولون ويأتون به، وهذا هو المراد « بالإيمان بالغيب» .

والذين هم أسرى المحسوسات والماديات فى يقينهم على شىء وثقتهم به ،ويجحدون بكل ما لا تسعه عقولهم وقياساتهم ، إنهم ــ فى الواقع ــ جاهلون بحقيقة الدين ، وإنه غير ميسور لهم أن يدخلوا حدود الدين وآفاقه ، إنهم لا يستفيدون من القرآن ، بل يواجهون فى القرآن على كل خطوة فى رحلتهم عقبات ومشاكل .

أما الذين لا يعبدون المادة ولا يخضعون لحواسهم خضوعا كاملاً ، ويعلمون أن دائرة « الممكنات » أوسع وأوسع ، وأنها ليست منحصرة فى الموجودات والمحسوسات ، أولئك هم العالمون بحقيقة الدين ، وإن مصدرهم العلمى القطعى ليس إلا وحى اللّه ، إنهم يثقون بأخبار الأنبياء وتعاليمهم كل الثقة ، فلا تواجههم مشكلة ، ولا تقطع طريقهم أى معضلة، ويظل لهم الدين حقيقة واضحة مفهومة ، ويبقى لهم القرآن هداية منيرة ساطعة ، إنه :

---

(١) انظر للتفصيل فى الموضوع « بين الدين والمدنية » للمؤلف .

(٢) الغيب: ما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة بحيث لا يدرك بواحد منهما بطريق البداهة .

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [1] .

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [2] .

إن الذين غلبت عليهم النظرة الحسية المادية واستحكمت فيهم ، يحاولون أن يحلوا حقائق من الدين هى وراء طور العقل وحدوده بدون أن يستعينوا بالإيمان بالغيب ، إن محاولاتهم هذه كمحاولة من يرقى السطح بدون سلم أو محاولة من يرغب فى الطيران بدون أن تكون له ريش وأجنحة ، إنه كما يحاول الصعود إلى علو ، تهبطه ماديته وكثافته إلى أسفل ، ويكون حاله كما صوره القرآن الكريم بأسلوبه البليغ النافذ :

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [3] .

٥ ــ التدبر :

إن من شروط الاستفادة من القرآن الكريم التدبر كذلك ، وقد رغب القرآن الكريم فيه وحث عليه فى مواضع متعددة ، ووصف به المؤمنين الذين يتلون كتاب الله بفهم وتفكير ، ولا يخرون عليه صمًا وعميانًا :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [4] .

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [5] .

---

(١) سورة البقرة : ٢، ٣ .
(٢) سورة البقرة : ٢٦ .
(٣) سورة الأنعام : ١٢٥ .
(٤) سورة الفرقان : ٧٣ .
(٥) سورة محمد : ٢٤ .

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾[1] .

٦ ــ المجاهدة :

إن مما يحتاج إليه ويفيد فى فهم القرآن الكريم وتدبره وكشف حقائقه، واتباعه والعمل به ، المجاهدة وتحمل المشاق ــ إلى حد ما ــ وشيء من التضحية والكفاح ، فليس القرآن من الكتب البشرية التى يحيط أى إنسان بمحتوياتها، ويتعرف على أغراض مؤلفيها ومقاصدهم بمجرد ذكائه وفطنته وعلمه ، بل إنه يحتاج للعلم بمقاصد اللّه ــ عز وجل ــ إلى مرضاته وإعانته، فإذا تكبد الإنسان للحصول على مرضاته والمشاق فى سبيله ، وعمل على طهارة قلبه وتزكية نفسه ، وتحسين أخلاقه ، تقبل عليه رحمة اللّه ،ويدنو منه فيضه ويشرح له صدره ، ويعطيه الحكمة والعلم .

ولما أن القرآن كتاب لطيف حكيم ، فلذلك بقدر ما تكون كثافة الإنسان المادية قليلة خفيفة ، بقدرها تكون صلته بالقرآن وانسجامه معه ، وينكشف له جمال القرآن بدون حجاب :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2] .

والعامل الثانى هو أن الإنسان كلما حاول وبذل جهده وتجشم المصاعب والمشاق لغرض ما من الأغراض ، وضحى لأجله ، فإنه يملك عليه مشاعره ، وتهيمن عليه لذته وتأثيره ، ويتكيف به ويحس بحلاوته وبشاشته .

---

(١) سورة النساء : ٨٢ .　　(٢) سورة العنكبوت : ٦٩ .

والعامل الثالث هو أن معظم القرآن عملى ، ليس نظريًا ، فلا يمكن إذن فهمه بطريقة نظرية فحسب ، إن الذى يمكنه هو أن يتعرف على كلماته ومعانيه الظاهرة ، ولكن التحقيق الصحيح لمحتوياته ، والمشاهدة لآثاره وتطبيقاته لا تمكن ـ أبدًا ـ بغير تجارب يعيشها وعمل يحققه فى واقع الحياة، ولقد كانت هذه إحدى ميزات الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فى فهم القرآن وإدراك معانيه .

٧ ـ التأدّب والتعظيم :

من الواجب والمفيد أن يلاحظ فى محاولة الاستفادة من القرآن الكريم واستمداد الهداية والفيض منه ، وتجلية القلب والروح به وتحليتهما بآثاره وحقائقه ، هذه الحقيقة المهمة ،وهى أنه ليس سجلا للمعلومات ، ومجموعة للقوانين والضوابط فحسب ، تقرأ وتطالع كما يشاء الإنسان ، ويطلع على ما فيها ويستوعب مضامينها ومحتوياتها ، كلا إنه كلام أحكم الحاكمين ، الذى اتصف بصفات الجلال والجمال ، والعطاء والنوال ، والتى هى صفاته وأسماؤه :

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرِ﴾(١) .

والذى قال عن كلامه بنفسه ووصفه بقوله :

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢) .

---

(١) سورة الحشر : ٢٣ .　　(٢) سورة الحشر : ٢١ .

ذلك الكلام الذى يقول عنه قائله ــ سبحانه ــ :

﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ .مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِى سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾(١) .

ويقول﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ .لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾(٢)، (٣).

والنتيجة الطبيعية لذلك أن الذين يدركون شيئًا من القرآن ،ويعرفون شيئًا من مكانة منزله وعظمته ، لا يمر عليهم القرآن بدون تأثير وفعل وتغيير .

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٤).

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾(٥) .

ويقول اللّه ــ عز وجل ــ عن هؤلاء الذين يتلون القرآن بالصفة التى قد سبقت :

---

(١) سورة عبس : ١٣ــ ١٦ . (٢) سورة الواقعة :٧٧ ــ ٧٩ .

(٣) يقول العلامة شبير أحمد العثمانى فى حواشيه على القرآن الكريم : ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ بمعنى خبر ، يعنى أن أصحاب القلوب الطاهرة والأخلاق الزكية هم الذين يتوصلون إلى علومه وحقائقه ، أو بمعنى أمر ، يعنى أنه لا يجوز أن يمسه إلا طاهر متوضئ كما ثبت ذلك بالأحاديث النبوية ــ صلى اللّه على صاحبها وسلم ــ انتهى .

ويقول الإمام الحافظ ابن كثير : « ولفظ الآية الخبر ومعناها الطلب ، قالوا والمراد بالقرآن ههنا المصحف ثم نقل رواية من الموطأ وهى من مراسيل أبى داود أيضًا ، أن النبى الكريم ﷺ قال : « لا يمس القرآن إلا طاهر » وقد قواه ابن كثير وإن كان فى أكثر الأحاديث فى هذا الموضوع نظر ، إلا أن مجموعها يثبت أن له أصلاً ثابتًا ، وأن الاحتجاج به صحيح.

(٤) سورة الأنفال : ٢ . (٥) سورة الزمر : ٢٣ .

﴿الَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [(١)].

يعنى أنهم يتلون كتاب الله بإكبار وإكرام يقرؤون كلام السلطان ، وهو أحكم الحاكمين ، ويطالعونه بحب وشغف كما يطالعون رسالة الحبيب الأثير .

تلك الأحاديث التى وردت فى فضل القرآن الكريم بعناية ، ويفيد فى هذا الصدد دراسة شيئين ، أولهما : دراسة واهتمام [(٢)] ، وثانيهما : دراسة وقائع وسير الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ، والفقهاء والمحدثين والعلماء الربانيين والأولياء والعارفين فى كتب السير والتراجم والطبقات التى ذكر فيها شغفهم بالقرآن الكريم وولعهم به وكيفيتهم وتأديبهم معه ، واحترامهم وتعظيمهم إياه ، وكيف كانت التلاوة ترقق قلوبهم وتجللهم بالسكينة وتغمرهم بالفيض ، فإنها ستكون حافزة للأشواق، مفتحة للأبصار، مؤثرة فى القلوب أكثر من أى شىء آخر [(٣)].

وننقل فى الصفحات التالية بعض الحكايات والقصص كنماذج من الكتب الموثوق بها التى يمكن أن يقدر من خلالها كيف كان الصحابة والتابعون والعلماء الربانيون يتأدبون مع القرآن الكريم ، وكيف كان شغفهم به ، وتأثرهم وانفعالهم بقراءته .

---

(١) سورة البقرة : ١٢١ .

(٢) يرجع إلى كتاب « فضائل القرآن » للإمام عماد الدين إسماعيل ابن كثير الدمشقى صاحب التفسير المنشور .

(٣) يرجع للقصص المؤثرة المشوقة المثيرة للوجدان فى هذا الباب إلى الكتب التالية : كتاب «قيام الليل » لمحمد بن نصر المروزى ، وكتاب « صفة الصفوة » لابن الجوزى ،و « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالى ،و « حلية الأولياء » لأبى نعيم الأصفهانى .

نماذج من تدبر السلف وتلاوتهم القرآن الكريم وقصصهم المؤثرة

نذكر تحت هذا العنوان قصصا للصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والعلماء الراسخين ،والأولياء العارفين ، تمثل نماذج ولعهم بالقرآن الكريم وشغفهم به ، وتأدبهم معه ، وإكبارهم له ، وانهماكهم فى تلاوته وتذوقهم لحلاوته ولذته ، ونبدأ فى سلسلة هذه القصص المؤثرة بقصة سيدنا رسول اللّه ﷺ الذى أنزل عليه هذا القرآن :

عن عبد اللّه (ابن مسعود) ــ رضى اللّه عنه ــ قال : قال لى رسول اللّه ﷺ : « اقرأ على ، فقلت أقرؤه عليك ، وعليك أنزل ؟ ، قال: إنى أحب أن أسمعه من غيرى ، فقرأت عليه حتى إذا بلغت :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ .

غمزنى غامز ، فرفعت رأسى فإذا عيناه تهملان » [١].

وعن أبى ذر ــ رضى اللّه عنه ــ قال : « قام رسول اللّه ﷺ حتى أصبح يتلو آية واحدة من كتاب اللّه ، بها يركع ، وبها يسجد ، وبها يدعو ، حتى أصبح :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إلخ[٢].

وعن عائشة ــ رضى اللّه عنها ــ :«كان أبو بكر ــ رضى اللّه عنه ــ رجلاً بكاءً ، لا يملك دمعه إذا قرأ القرآن » .

---

(١) حديث متفق عليه .

(٢) رواه الإمام أحمد عن أبى ذر ــ رضى اللّه عنه ــ فى مسنده .

وعن أبى رافع قال : كان عمر بن الخطاب يقرأ فى صلاة الغداة بالمئين بالكهف ،ومريم ، وطه ،واقترب ، ونحوهن من السور ، فإنى يوما مع عمر ــ رضى اللّه عنه ــ فى صلاة الغداة وأنا فى آخر صفوف الرجال ما يلى النساء وهو يقرأ التى يذكر فيها يوسف ــ عليه السلام ــ فمر بهذه الآية :

﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ ،وكان جهير القراءة فبكى حتى انقطعت قراءته وحتى سمعت نحيبه .

وعن ابن عمر ــ رضى اللّه عنهما ــ : « غلب على عمر بن الخطاب ــ رضى اللّه عنه ــ البكاء فى صلاة الصبح حتى سمعت نحيبه من وراء ثلاثة صفوف » .

وعن الحسن ــ رضى اللّه عنه ــ « كان عمر بن الخطاب ــ رضى اللّه عنه ــ يمر بالآية من ورده بالليل ، فيبكى حتى يسقط ، ويبقى فى البيت حتى يعاد للمرض » (١).

وعن محمد بن سيرين قال : « قالت امرأة عثمان حين أطافوا به يريدون قتله ، إن تقتلوه أو تتركوه ، فإنه كان يحيى الليل بركعة يجمع فيها القرآن » (٢) .

أخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عن الحسن قال : « قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ــ رضى اللّه عنه ــ : لو أن قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا ، وإنى لأكره أن يأتى على يوم لا أنظر فى المصحف،

---

(١) هذه الروايات مقتبسة من كتاب « قيام الليل » للإمام محمد ابن نصر المروزى : ص٥٧ ، طبع لاهور سنة ١٢٢٠هـ .

(٢) الاستيعاب ، لابن عبد البر : ج٢ ، ص٤٤٨ ، طبعة حيدر آباد عام ١٣١٩هـ .

وما مات عثمان ــ رضى اللّه عنه ــ حتى خرق مصحفه من كثرة ما كان يديم النظر فيه » [1].

أخرج مالك أن الفرافصة بن عمير الحنفى قال : « ما أخذت سورة يوسف إلا من قراءة عثمان بن عفان إياها فى الصبح من كثرة ما كان يرددها » [2].

وقد كان سيدنا على بن أبى طالب ــ رضى اللّه عنه ــ : « انصرف إلى جمع القرآن بعد وفاة الرسول الكريم ﷺ إنصرافاً كليًا حتى لم يخرج من بيته عدة أيام » [3].

وقد وردت مثل هذه الروايات والقصص فى كتب التاريخ والسيرة عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص ، وعبد اللّه بن عمر ،وعبد اللّه بن رواحة، وعبد اللّه بن عباس ، وعبد الرحمن بن عوف ــ رضى اللّه عنهم أجمعين ــ وأمثالهم من الصحابة الأجلة ، وعن سعيد بن جبير ، ومالك بن أنس ،ومنصور بن المعتمر ،وغيرهم من التابعين الكرام ، فى تلاوتهم للقرآن الكريم وخشوعهم عنده ، وبكائهم وتأثرهم .

قرأ زرارة بن أوفى وهو يؤم فى المسجد الأعظم :

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ . فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ ، فخر ميتا ، قال بهز بن حكيم ، فكنت فيمن احتمله حتى أتينا به داره .

وصلى خليد ــ رضى اللّه عنه ــ فقرأ :

(١) حياة الصحابة ، للشيخ محمد بن يوسف الكاندهلوى : ج٤ ، ص٢٣،٢٤ ، طبع دمشق .

(٢) نقلاً عن « إزالة الخفاء » : ج٢ ، ص٢٢٨ .

(٣) انظر « الاستيعاب » : ج٢ ، ص٤٧٧ ، طبع حيدر آباد .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[1] فرددها مرارًا ، فناداه مناد من ناحية البيت، كم تردد هذه الآية، فلقد قتلت بها أربعة نفر من الجن لم يرفعوا رؤوسهم إلى السماء حتى ماتوا ، من ترددك هذه الآية ، فوله خليد بعد ذلك ولها شديدًا حتى أنكره أهله ، كأنه ليس الذى كان .

وسمع آخر قارئا يقرأ :

﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾[2] (الآية)فصرخ واضطرب حتى مات.

وعن حمزة قال: بعثتنى أسماء ـ رضى اللّه عنها ـ (بنت أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه) إلى السوق وافتتحت سورة الطور ، فانتهت إلى قوله :

﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾[3] ، فذهبت إلى السوق ورجعت وهى تكرر ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ .

وأتى تميم الدارى المقام ، فاستفتح الجاثية ، فلما بلغ : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[4] .

جعل يرددها ويبكى حتى أصبح .

وردد سعيد بن جبير ـ رضى اللّه عنه ـ وهو يؤمهم فى رمضان :

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾[5] مرارًا .

وقام ليلة ، فقرأ : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾[6] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٨٥ .

(٢) سورة يونس : ٣٠ .

(٣) سورة الطور : ٣ .

(٤) سورة الجاثية : ٢١ .

(٥) سورة غافر : ٧١ .

(٦) سورة البقرة : ٢٨١ .

فرددها بضعا وعشرين مرة ، وكان يبكى بالليل حتى عمش .

وقال الليث عن مسروق ــ تلميذ ابن عباس ــ رضى اللّه عنه ــ : «كان يقرأ الرعد ما بين صلاة العشاء إلى صلاة الفجر» .

وكان هارون بن رياب الأسدى يقوم من الليل للتهجد ، فربما ردد هذه الآية حتى يصبح :

﴿ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ويبكى حتى يصبح .

وردد الحسن (البصرى) ليلة :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ حتى أصبح ، فقيل له فى ذلك، فقال : « إن فيها معتبراً ، ما نرفع طرفا ولا نرده إلا وقع على نعمة، وما لا نعلمه من نعم اللّه أكثر » [1].

وقام الإمام أبو حنيفة ليلة يردد :

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾حتى أصبح[2] .

إن هذه السلسلة من هذه الانفعالات المؤثرة والاستجابة القوية للقرآن الكريم لم تزل تنتقل من جيل إلى جيل ، ومن عصر إلى عصر ، واستمر شغف هذه الأمة المسلمة بكلام اللّه وهيامها به ، وفيض القرآن وتأثيره من دون انقطاع أو فترة ، وقد حفظ التاريخ وقائع وقصصا مثيرة للعلماء

---

(١) هذه الروايات كلها مقتبسة من كتاب « قيام الليل » لمحمد بن نصر المروزى : ص٥٩، ٦٠، طبع لاهور ، عام ١٣٢٠هـ .

(٢) انظر « الخيرات الحسان فى مناقب أبى حنيفة النعمان » للشيخ أحمد بن حجر الهيثمى المكى .

الراسخين ، والمجددين والمصلحين ،والمحققين العارفين ، فى كل عصر، لغرامهم بالقرآن الكريم وشغفهم به ، واستغراقهم فى تلاوته وأنسهم به، ونكتفى هنا بسرد بعض القصص لكبار علماء هذه الأمة وصالحيها :

لقد كان المؤلف الشهير والمحدث الجليل والمؤرخ الناقد العلامة ابن الجوزى يختم القرآن كل أسبوع مرة ، وكان السلطان صلاح الدين الأيوبى ذا رغبة شديدة فى سماع القرآن الكريم ، وكان يسمع فى برجه من حرسه ــ أحيانًا ــ جزئين وثلاثة وأربعة أجزاء ، وكان يغلبه التواضع والخشوع والرقة حتى كثيراً ما تفيض دموعه عند سماعه لتلاوة القرآن(١) .

لما اعتقل شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية فى ٧/ شعبان عام ٧٢٦هـ حيث فارق الحياة وانتقل إلى الرفيق الأعلى فى ٢٢/ ذى القعدة عام ٧٢٨هـ كان أكثر اشتغاله واهتمامه بتلاوة القرآن الكريم ،وقد بقى فى السجن قرابة عامين وأربعة أشهر ، وختم فى هذه المدة القرآن الكريم مع أخيه الشيخ «زين الدين بن تيمية » ثمانين ختمة ،ولما وصل إلى قوله ــ تعالى ــ من سورة القمر فى تلاوته بعد أن أكمل ثمانين ختمة : ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ . فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ**﴾ ترك أخاه زين الدين وأخذ فى مدارسة القرآن مع الشيخ عبد اللّه بن محب وعبد اللّه الزرعى وكانا فى غاية من الصلاح والتقى وأخوين شقيقين ، وكان معجبا بقراءتهما القرآن، ما كادت تنتهى هذه المدارسة حتى انتهت أيام حياته (٢) .

وعدا هؤلاء العلماء الأعلام الذين كانت لغتهم هى العربية ، والذين كانت وظيفتهم ومهمتهم الدائمة هى خدمة العلوم الإسلامية ، والغوص فى دقائقها ، لا تقل قصص العلماء والمشايخ الصالحين الذين ولدوا فى

(١) النوادر السلطانية للقاضى بهاء الدين ابن شداد : ص ٢٥٢ .

(٢) انظر « رجال الفكر والدعوة » : ج٢ ، ص١١١ ــ ١١٤ .

العجم وكانت لغتهم غير العربية ، فى تذوقهم لتلاوة القرآن الكريم ، وعنايتهم بحفظه وشغفهم به ، وانصرافهم كليا إليه ، واستغراقهم فيه ، لا تقل هذه القصص إثارة للرغبة وتأثيرًا فى النفوس وعظة وعبرة ، ونجتزئ من مئات هذه القصص ــ فيما يلى ــ ببعض الحكايات المؤثرة ، وإن هذه القصص لا تنحصر فى المشايخ المتقدمين بل تمتد سلسلتها إلى العلماء والمشايخ المعاصرين :

لقد كان الشيخ الكبير نظام الدين البدايونى الدهلوى (م٧٢٥هـ) صاحب تذوق خاص للقرآن الكريم ، وكان يحث على حفظه والاهتمام به ، ويرغب فى كثرة تلاوته ، فلما اتصل به الأمير الشيخ حسن السجزى وبايعه ،كان كبير السن ، وكان شاعرًا مفلقًا ، اشتغل به طول عمره ، فأوصاه الشيخ نظام الدين بأن يغلب ذوقه القرآنى على ذوقه الشعرى ، يقول الأمير فى «فوائد الفؤاد» : كم من مرة سمعته أذناى يقول: ينبغى أن تغلب تلاوة القرآن على قرض الشعر .

وكان الشيخ محمد بن بدر الدين إسحاق ، حافظًا مجودًا للقرآن ، يقرؤه بلحن حسن شجى ، وقد عينه الشيخ نظام الدين إمامًا فى الصلاة، وكان يتمتع بقراءته ويتأثر بها ، يغلبه البكاء ويتذوق [1] .

وكان الشيخ شرف الدين يحيى المنيرى (م٧٨٦هـ) يملك ذوقًا خاصًا فى تلاوة القرآن الكريم والاستماع إليه ، يقول أحد تلامذته فى التربية والتسليك ، الشيخ زين بدر العربى وهو يذكر أحوال وفاته :

«حضر عنده الأمير شهاب الدين أخو ملك حسام الدين ، بابنه ،

(١) تاريخ دعوت وعزيمت : ج٢ ، ص١٢٢، ١٢٣ ، نقلاً من «فوائد الفؤاد » : ص٢٤٩ ، و « سير الأولياء » : ص٢٠٠

وجلس فى المجلس ، فوقع بصر الشيخ على ابنه ، وقال : هل يمكنك أن تقرأ خمس آيات ، فقال بعض الحاضرين فى المجلس : إنه أصغر من ذلك ، وكان ابن السيد ظهير الدين أيضًا حاضرًا ، فلما رأى الشيخ هلال أن الشيخ يحب أن يسمع القرآن الكريم فى هذا الوقت ، دعا ذلك الولد له يقرأ خمس آيات ، ولما أحس السيد ظهير الدين أن الشيخ يريد ذلك ، أمر ابنه أيضًا بقراءة خمس آيات ، فحضر الولد وجلس متأدبًا ، وبدأ يقرأ من سورة الفتح أواخر آياتها من ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ** ... ﴾ إلخ ، وكان الشيخ متكئًا على وسادته ، فجلس ، وقعد كعادته متأدبا كهيئة الصلاة ، وأصغى إلى التلاوة» (١) .

ويذكر فى سيرة الإمام المجدد أحمد بن عبد الأحد السرهندى أنه كان يبدو عند تلاوته لكتاب الله – تعالى – ويظهر على وجهه أن الحقائق القرآنية تفيض عليه ، وأن بركاته تنسكب وفيوضه تنهمر ،وكان إذا قرأ آيات العذاب أو الآيات التى جاءت بصيغة التعجب والاستفهام ، تجاوب معها ، وتكيف بها ، ولا يختم فى شهر رمضان أقل من ثلاث ختمات ، وكان حافظًا للقرآن ، فكان دائم التلاوة طول العام ، ويسمع القرآن الكريم فى حلقاته كذلك (٢).

كان الشيخ فضل الرحمن الكنج مرادآبادى (م١٣١٣هـ) يقرأ القرآن ذات يوم إذ غلبه الوجد ، فقال للشيخ السيد تجمل حسين : « إن اللذة التى نجدها فى القرآن ، لو وجدتم منها ذرة ، لما صبرتم على الجلوس مثلنا ، ولخرجتم – تمزقون ثيابكم – إلى الصحراء ، ثم قال : آه ،

(١) المصدر السابق : ص٢٣٢ نقلاً من « وفات نامه» للشيخ زين بدر العربي .

(٢) حياة الإمام السرهندي « رجال الفكر والدعوة :ج٤ » نقلاً من « زيدة المعارف » .

ودخل حجرته ومرض لعدة أيام » [1] .

يقول الشيخ السيد محمد على المونكيرى ، قلت مرة فى بداية اتصالى بالشيخ فضل الرحمن ، له : سيدى ! إن المتعة التى أشعر بها فى الشعر لا أشعر بها فى القرآن !؟ فقال : ما زال الأمر بعيدًا ، وإذا حصل لك القرب والترقى فاللذة التى ستجدها فى القرآن لا تجدها فى غيره [2].

وقال ذات يوم : « إن الصلة الحقيقية بالقرآن غاية السلوك والإحسان » [3] .

ويقول الشيخ الجليل عبد القادر الرائيفورى ـ أحد كبار المشايخ المعروفين فى عصره ـ وهو يصف حال مربيه وشيخه الشيخ عبد الرحيم الرائيفورى (م١٩١٩م ـ الموافق ١٣٣٧هـ) :

« لقد رأيت الشيخ يقرأ القرآن الكريم ، فكان يطيل قراءته فى صلاة الليل أيما إطالة ، فتارة يبكى، وإذا جاء ذكر العذاب،بكى واستغفر اللّه ـ تعالى ـ وتضرع إليه تضرعًا عجيبًا يتمثل حال من يسأل العفو عن جريمته فى ضراعة ولهف ، وإذا جاءت آية فيها ذكر رحمة اللّه ـ عز وجل ـ استبشر وسر تارة ، وهدأ صامتًا أخرى » .

(١، ٢، ٣) تذكرة الشيخ فضل الرحمن الكنج مرادآبادي للمؤلف ، نقلاً عن«ذكر رحماني» للشيخ السيد تجمل حسين : ص٧ .

بعض تجارب وملاحظات

إن للمؤلف تجربة عملية ، واقتراحا مخلصًا ، فى صدد الصلة الشخصية المباشرة بالقرآن الكريم ، والعلاقة القوية معه ، وتذوقه والتجاوب معه، والاستفادة منه أكثر فأكثر ،والتقرب به إلى اللّه ، والرقى عن طريقه فى مدارج التوفيق .

وهو أنه ينبغى أن يشتغل بالقرآن ــ قدر المستطاع ــ مباشرة بدون وساطة ويتلى متنه أكثر ما يمكن ، ويستمتع بقراءته ، ويتذوق ويتدبر فى معانيه ، فإذا كان القارئ قد حصل من العربية ما يحتاج إليه ، وتمكن من فهم القرآن الكريم مباشرة ، فعليه بقراءته وفهمه مباشرة ، وإلا فليرجع إلى الحواشى والملاحظات التفسيرية المختصرة ، ويحاول تلاوة القرآن الكريم ، وفهمه وتدبره وتذوقه من دون اعتماد وتعويل دائم على تفسير إنسانى ، ومراجعة كثيرة لكتب التفاسير ، ويكتفى بذلك إلى مدة ما من الزمن ، ويحمد اللّه ــ تعالى ــ على ما يفتحه عليه من فهم كتابه ، وما يوفق إليه من تلاوته ، حمدًا كثيرًا .

يجتنب فى ذلك ــ عدا مواضع الحاجة إلى البحث العلمى أو إزالة شبهة ــ البحوث التفصيلية الخاضعة للاتجاهات العصرية ، أو العصبية الجماعية ، السياسية أو القيادية ، أو التفكير الناشئ من دراسة العلوم الحديثة أو الحضارة الغربية ، إذ أنه تطغى ــ أحيانًا ــ على ينبوع القرآن النقى الصافى ، ظلال العقول والعلوم الإنسانية والأغراض الجماعية أو القيادية ، كما تغشى على العين الصافية النقية ظلال الأشجار الكثيفة

الوارفة ، ثم لا تبقى فيه تلك العذوبة واللذة ،والأصالة والشفافية التى هى جوهر القرآن وروحه .

بل لقد أثبتت التجارب أن القارئ يتأثر ـ أحيانًا ـ بتفهم إنسان ألمعى فاضل وتفسيره ـ وقد يكون معجبا به من قلبه ـ أكثر مما كان ينبغى له أن يتأثر بالكلام الإلهى الأصيل ، ويتسرب إلى ذهنه وشعوره أو من منفذ من المنافذ المختلفة ، إنه لولا هذا التفهم والتفسير لم يظهر هذا الجمال القرآنى الذى أتمنّاه ولم تتجل لى عظمته وجلاله وروعته ، وأقل ما يتمكن من خاطره هو أنه يتعود على النظر إلى القرآن الكريم بمنظار تفسير إنسانى خاص، أو قل بمنظار أحد المفسرين والشراح أو القادة والدعاة[1].

---

(١) هذا الذي ذكر هنا يتعلق بأوساط الناس من القارئين .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
هذا الكتاب	٥
القرآن يتحدث عن نفسه	١١
الإعجاز القرآنى	٢٨
إثبات الوثائق التاريخية العتيقة ، وتصديق الباحثين المسيحيين المعاصرين الحديثة ، لما جاء فى القرآن من : تبرئة المسيح ـ عليه السلام ـ من الصلب والقتل	٤١
المعجزة الثالثة للقرآن الكريم أنباؤه الغيبية ونبوءاته الصادقة	٤٦
دراسة مقارنة بين القرآن الحكيم والصحف السماوية السابقة	٥٠
قصة سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ فى القرآن والتوراة	٥٣
سيرة الأنبياء كما تصورها التوراة والقرآن	٥٧
تنبيه القرآن الكريم على تحريفات الصحف السابقة والفروق الدقيقة بين عقائد الديانات السابقة والفرق الدينية	٦١
إحدى نبوءات القرآن العظيمة (نبوءة غلبة الروم)	٦٨
نماذج من نبوءات أخرى فى القرآن الحكيم	٨٤

القرآن الحكيمﷺ معجزة الهدايةوالانقلاب البناء المبارك ٨٩
القرآن الحميد والصحف السماوية القديمة فى ميزان العلم والتاريخ ٩٢
شروط الإستفادة من القرآن العظيم موانعها ، ومؤيداتها ١٠٨
موانع الاستفادة من القرآن الحكيم ١١١
مؤيدات الاستفادة من القرآن الكريم ١١٧
نماذج من تدبر السلف وتلاوتهم القرآن الكريم وقصصهم المؤثرة ١٢٦
بعض تجارب وملاحظات ١٣٥